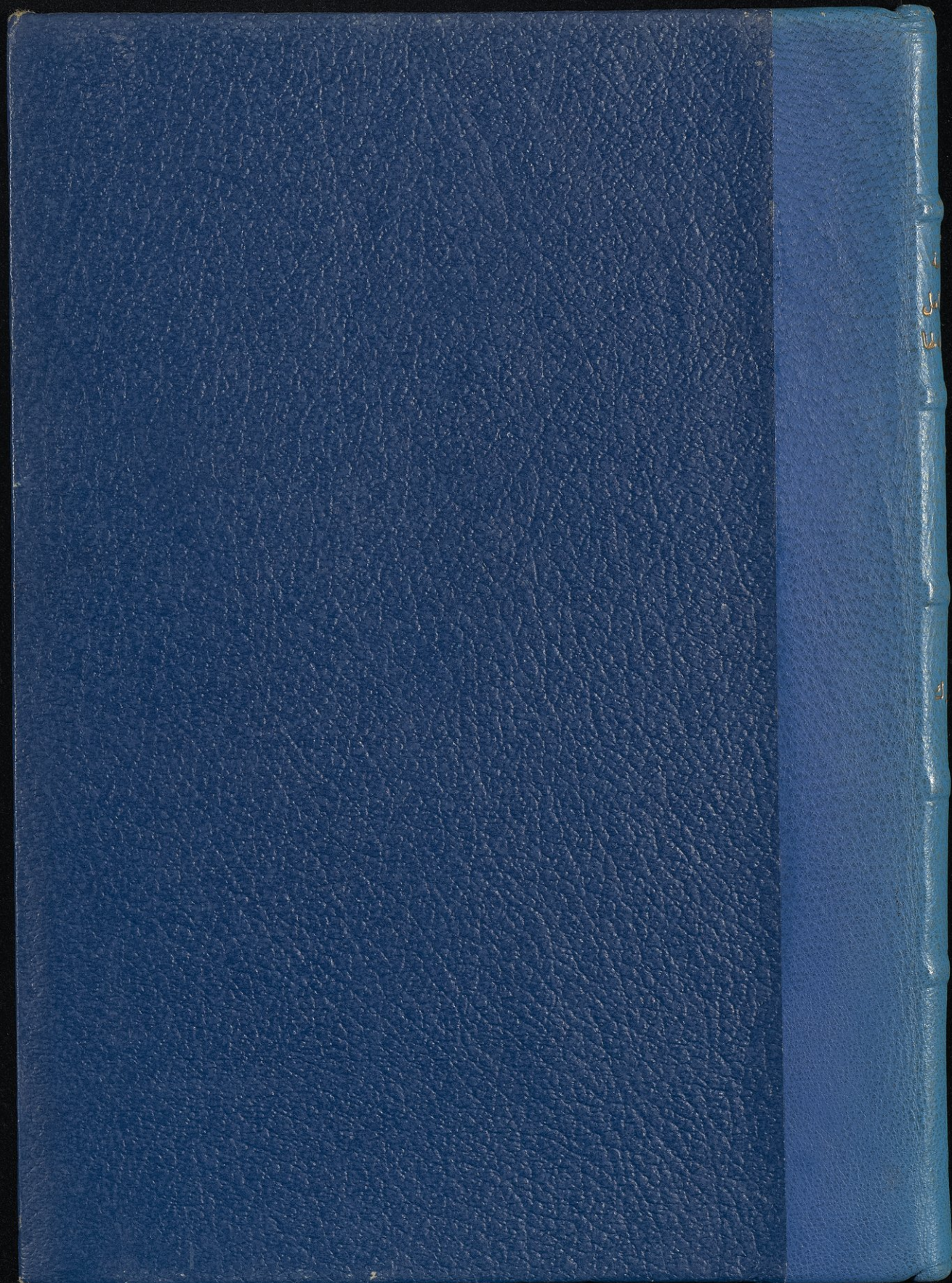




DS
63
.7
M94
1960

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

VAR. 9861.

PL-0
Oct 1979

المجتمع العربي
١

الأمة

والعوامل المكونة لها

محمد المبارك

الطبعة الثانية

دار الفكر بدمشق

Handwritten text at the top left corner.

Handwritten mark or character below the top left text.

Handwritten text in the middle section, possibly a list or series of numbers.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a signature or title.

Handwritten text in the bottom middle section, possibly a signature or title.

Handwritten text below the bottom middle signature.

Handwritten text at the bottom right corner.

المجتمع العربي

١

الأمة

والعوامل المكونة لها

محمد المبارك

الطبعة الثانية

دار الفكر بدمشق

B925718

55

VPK



بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله ! وصلاة النبي وسلاماً على العربي المبعوث رحمة للعالمين

تمهيد

إن بحث العوامل المكونة للامة وتحديد مفهوم الأمة والقومية والشعب ، من الأبحاث التي يعنى بها كل مثقف كما يعنى بها المهتمون بالدراسات الاجتماعية . وهو موضوع اهتمام خاص لدى الباحثين في المجتمع العربي ومحل تفكير أبناء البلاد العربية لما ينتج عن الأخذ بأحدى وجهات النظر المختلفة من نتائج هامة في مجال التربية والتعليم والثقافة والتفكير وفي ميادين السياسة والعمل الاجتماعي . ولذلك كان هذا البحث من الموضوعات التي تدرس في كثير من الكليات في الجامعات العربية ضمن مباحث المجتمع العربي اوفى مباحث علم الاجتماع . وقد رأيت أن من الضروري إبراز هذا الموضوع وعرضه عرضاً

مفصلاً بعض التفصيل يستند إلى مسلمات علم الاجتماع ومعالجته في ضوء نظرياته معالجة موضوعية بعيدة عن العواطف والرغبات مهما تكن تلك العواطف طيبة والرغبات سالحة .

فقد تدفع بعض الناس رغبة خاصة في إقصاء عنصر الدين عن القومية مثلاً إلى تقرير هذه الرغبة على أنها حقيقة واقعة ، يذهبون سلفاً إلى تقريرها والبحث عن الأدلة التي تؤيدها .

وقد تدفع الحماسة للعقيدة الدينية فريقاً آخر إلى الاعتقاد سلفاً بأن الدين بوجه عام أيا كان ذلك الدين هو أساس تكوين المجتمعات والرابطة الأساسية التي تربط بين أفرادها فيقيمون أملهم المنتظر وهدفهم المثالي المنشود في تكوين مجتمع إنساني رابطته العقيدة الدينية مقام الحقيقة الواقعة . وشتان في الحالين بين الرغبات الانسانية أو الأهداف المثالية والحقائق الواقعة سواء أكانت هذه الحقائق حسنة مرغوبة أم سيئة مستنكرة .

وهذا ما حدث بالفعل للباحثين في المجتمع العربي وكثيراً ما دار الجدل بين فريقين يمثلان النظرتين .

فان فريقاً من أبناء المجتمع العربي لهم فكرة سابقة ورغبة خاصة في إقصاء الدين بوجه عام والاسلام بوجه خاص عن المجتمع العربي

سواء في تكوينه التاريخي أو في تخطيطه للمستقبل وقد تكون هذه
الفكرة ناشئة عن مفاهيم خاطئة عن الاسلام أو تاريخ العرب أو أن
تكون لتلك الرغبة بواعث شخصية أو عصبية خاصة تدفع صاحبها
لأن يتمنى أن لا يكون الاسلام أساساً للمجتمع العربي في الحاضر وقد
تدفعه إلى الادعاء أن ليس الاسلام عنصراً أساسياً في المجتمع العربي
حتى في الماضي بل قد يعصف به هوى جامح ومنطق سخي إلى
الادعاء أن العهد الجاهلي في تاريخ العرب أفضل وأرقى من العهد
الاسلامي .

ففرق كبير بين الرغبة في أن يكون المجتمع على صورة من الصور
التي يراها بعض الناس مثالية وبين واقع المجتمع . على أن تلك الرغبة
قد تكون لها دوافع شخصية أو تكون ناشئة عن مصلحة فرد أو
جماعة خاصين دون غيرهم ولا تكون مجردة ولا واقعية ولا تكون
كذلك مثالية فتكوين الأمم والقوميات وعوامل تكوينها وتطورها
لا تخضع لهذه الرغبات والأمانى ولا تخضع لرأي الباحث في ميله
الشخصي لترجيح أحد العوامل أو إقصائه سواء أكان ذلك الميل
ناشئاً عن رغبة شخصية أو منفعة أو عن فكرة خاصة يعتقدها . وكثيراً
ما تلبس الرغبات الشخصية بالحقائق الواقعة فيقيم الانسان رغبته أو

مثاليته مقام الحقيقة فيقررها على أنها واقع ويمضي في إقامة الأدلة على اثباتها . وهذا ماحدث لدى بعض الباحثين في المجتمع العربي .



وهناك أمر آخر كان سبباً في الوقوع في الخطأ في بحث عوامل تكوين الأمة العربية عند الباحثين في هذا الموضوع . ذلك إهمال النظرة التطورية في العوامل المكونة للأمة فإن هذه العوامل نفسها في تطور ونصيب كل منها في تكوين الأمة يختلف باختلاف مراحل التطور . فليست هذه العوامل نفسها ثابتة مستقرة في مدى تأثيرها . فقد يكون تأثير الأرض أو الجنس (العرق) في طور من أطوار نشوء الأمة أو المجتمع القومي قوياً عميقاً ولا يكون كذلك دائماً وهذا ماوضحناه وراعيناه في بحثنا .



ولعلنا سلكنا فيما كتبناه في هذا البحث طريقاً جديداً في تحليل بعض العوامل الاجتماعية كالتاريخ واللغة والثقافة وارجاعها الى العناصر التي تتألف منها وتحتفي وراها . ذلك أن عدم التعمق في تحليل مضامينها أوقع كثيراً من الباحثين في رأينا في الخطأ والسطحية . وكذلك الحال في عنصر الدين فان مايدخل تحت هذا الاسم وينطوي

تحت هذا العنوان مختلف متنوع من الوجهة الاجتماعية . فالدين قد يكون مجموع شعائر (طقوس) وعبادات وليس فيه إلا عدد بسيط من المعتقدات والأفكار وقد يكون مشتملاً على نظرات عامة للوجود وعلى فلسفة في الحياة وقد يكون مشتملاً على انظمة اجتماعية . ولا يكون تأثيره الاجتماعي في هذه الأحوال واحداً وقد تشاركه بعض المذاهب الاعتقادية غير الدينية في تأثيره الاجتماعي دون أن تكون ادياناً . ومن هنا يتبين أن كلمة (الدين) قد تخفي وراءها مفاهيم مختلفة وظواهر متنوعة وليس أثرها في القوميات والأثم وتكوينها واحداً باعتبارها عوامل مؤثرة في هذا التكوين ولا يمكن حينئذ إطلاق حكم واحد عليها . ذلك ان المفهوم العرفي واللغوي لكلمة دين يقابله مفاهيم مختلفة من الوجهة الاجتماعية .



وهذا البحث الذي أقدمه جزء من مجموع ابحاث عنيت بها منذ سنين طويلة تدور حول الأمة والقومية والانسانية وما بينها من علاقات وما يسير نحوه التطور البشري في هذا المجال من وجهة النظر الواقعية الموضوعية (التاريخية الاجتماعية) ومن وجهة النظر المثالية الخلقية من ناحية أخرى وتطبيق ذلك على الصعيد العربي مما يكشف

العلاقة بين العروبة والانسانية ، والصلة بين العروبة والاسلام .
ولئن كانت هذه الأبحاث التي أشرت اليها جاهزة في هيكلها العام
واجزائها المفصلة فانها تحتاج لاجراجها وعرضها إلى إعداد ، وأرجو
الله تعالى أن يتيح لذلك فرصة قريبة وهو المستعان وعليه التكلان .

محمد المبارك

الأستاذ في جامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المجتمع العربي

المقدمة

قد نتساءل لماذا ندرس المجتمع العربي وما الغاية من دراسته ؟
والجواب على هذا التساؤل هو :

١ - اننا ندرس المجتمع العربي لأنه المجتمع الذي نعيش فيه ، فهو
يبتئنا التي يجب أن نعرفها وتتألف معها ، والبيئة التي نحاول أن نصالحها
ونساهم في تحسينها وترقيتها ، ومعرفتها شرط أساسي لا بد منه للتمكن
من إصلاحها .

وإذا كنا ندرس مبادئ الاسلام وتعاليمه وعقيدته وتشريعه في
كلية الشريعة ، فانما هدف هذه الدراسة إصلاح المجتمع الانساني على
هذه الأنس السليمة المثينة وإيصاله الى هذه الأهداف الانسانية
السامية ، ولا بد لتحقيق هذه الغاية من دراسة المجتمع الذي يراد

إصلاحه ، ومعرفة البيئة التي يراد تطبيق هذه المبادئ فيها ، ولذلك يدرس العربي مجتمعه الخاص ، كما يدرس الأندونيسي والباكستاني والأفغاني وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية ، مجتمعاتهم التي يريدون إصلاحها ، دراسة علمية تعرفهم بما فيها من أحوال ، وما يجري فيها من تبدلات ، وما يقع من مشكلات .

٢ - وثمة سبب آخر يقتضي دراسة المجتمع العربي في كلية الشريعة ، ذلك أن المجتمع العربي هو بيئة الاسلام الأولى ، فمنه شع نور الاسلام ، وبلغته نزلت آيات الكتاب الكريم ، ولا بد لفهم هذه الآيات وما تضمنته من أحكام ، من معرفة عادات العرب وأسااليبهم في الحياة ، لأن الخطاب وجه أول ماوجه اليهم ، فهو وإن كان عاماً في حكمه ، خاص في أسلوبه وطريقة إلقائه ، فقد جاء على طريقتهم في الخطاب ، ولا بد من تحكيم فهم العرب وعاداتهم في تفسيره . ولا بد أن تكون ثمة حكمة آلهية في اختيار البيئة العربية مهبطاً للرسالة وقاعدة لانطلاق الدعوة الإسلامية ، وهي دعوة إنسانية عامة لا تخص شعباً ، ولا تنحصر في أرض .

٣ - وإن انطلق الدعوة الإسلامية ومبادئ الاسلام في هذا العصر يجب أن يبدأ من حيث بدأ في الانطلاقة الأولى ، ومن أجل

هذه الغاية يجب أن ندرس المجتمع العربي دراسة تمكننا من معرفة أحواله وظروفه ، وتمكننا من جعله أساساً لهذا الانطلاق ،

نواحي دراسة :

إن معرفتنا لهذا المجتمع تقتضي معرفة حاضره وماضيه ، وتصور مستقبله وتطوره ومصيره ، وتشتمل على دراسة نواحيه السياسية والاقتصادية والفكرية والخلقية والاجتماعية ، وعلى معالجة مشكلاته في هذه النواحي ، وعلى صلاته بالعالم الخارجي والشعوب الأخرى ، سواء في ذلك صلاته مع الشعوب التي تشترك معه في الثقافة أو الدين ، أو مع الشعوب التي غزته واستعمرت بلاده ، وعلى مشكلاته كذلك في هذه الصلات الخارجية. كما تقتضي كذلك دراسة المجتمع العربي معرفة العوامل التي كونه والروابط التي تشد أفراده وما يكون من هذه الروابط أساسياً وثانوياً ومن أجل هذا قدمنا هذه الدراسة التي بحثنا فيها العوامل التي تكون الأمة .

العالم ينقسم الى شعوب

تتكون البشرية من شعوب ، اواقوام ، اوقوميات ، يتميز كل منها بأرضه ولغته وعاداته وتقاليده ، سواء أكان هذا الشعب يؤلف دولة او جزءاً من دولة او اكثر من دولة ، وكل هذه الأحوال واقعة ولها شواهد في الحاضر والماضي .

وتختلف الشعوب في تكوين ظروفها التاريخية وفي صفاتها المادية والمعنوية وفي خصائصها التي كونتها ارضها وتاريخها خلال قرون طويلة جداً ، وفي لغاتها ولهجاتها وفي امزجتها وعقليتها . ويحصل بين افراد الشعب الواحد بسبب الاشتراك في هذه الأمور من التآلف الطبيعي والحياة المشتركة الطويلة ما لا يكون بينهم وبين غيرهم ، فكما أن التآلف في نطاق الأسرة طبيعي يستند الى الغريزة والفطرة الطبيعية ، فكذلك يحصل من التآلف في نطاق اوسع داخل كل شعب او قوم ما يشبه ذلك التآلف الطبيعي بسبب التشابه والتعايش الطويل .

وليس اختلاف الشعوب نقمة ، بل نعمة ، ذلك أن التعاون

البشري بين الجماعات ، كما هو بين الأفراد ، يتم على اساس التكامل واستفادة كل واحد مما يحسنه الآخر ، فيتم تبادل المنافع بقيام كل شعب بما يحسنه ويعمل إليه من الماديات والمعنويات .

وان اختلاف الأُقوام في صفاتها وخصائصها ومواهبها وعددها وقوتها ، لا يمنع من تساويها في القيمة المعنوية والكرامة الانسانية ، ولا يمنع كذلك من اشتراكها في بناء الحضارة والتقاءها على صعيد واحد مشترك في كثير من الشؤون . وإذا كان ارتباط الانسان بقومه الذي ينتمي اليه ، وشعوره بالتضامن معهم بسبب عوامل نفسية واجتماعية قوامها الحياة المشتركة ، وهو ما يعبر عنه بالشعور القومي ، شعوراً طبيعياً فان نزوع الشعوب الى الالتقاء وتطورها الواقعي ، ولا سيما في العصر الحاضر ، نحو أهداف مشتركة ، ونحو التقارب والتشابه فيما بينها وتعاونها في كثير من ميادين العلم والاقتصاد والسياسة وغيرها ، يدل كذلك على أن النزعة الانسانية في جميع الأُقوام نزعة طبيعية كذلك . وقد كان للأديان السماوية أثر قوي في تقوية هذه النزعة الانسانية ، وفي توطيد الصلات بين الشعوب وإيجاد نقط الالتقاء بين الشعوب التي دانت بدين واحد .

وتحاول المذاهب السياسية الجديدة الاستفادة من هذا الاتجاه

الطبيعي نحو الانسانية لتوطيد أسسها وتمكين قواعدها .

ونستطيع إجمال مآذ كرناه في نتيجتين :

١ - إن البشرية كانت ولا تزال مؤلفة من أقوام أو شعوب تختلف في لغاتها وأوطانها وفي كثير من الصفات والخصائص والظروف والأحوال :

٢ - إن الأقوام تتطور سائرة باتجاهها نحو الالتقاء والتعاون الانساني ، وتزداد في كل يوم ساحة الالتقاء ومواطن الاشتراك حتى أصبحت القوميات المغلقة قوميات متخلفة عن ركب التطور الحضاري .

وتلخص هذه النتائج أروع تلخيص في أوضح تعبير الآية القرآنية القائلة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

المجتمع العربي

في هذا العالم المؤلف من قوميات كثيرة وشعوب عديدة ، بلاد تمتد في رقعة واسعة من الأرض ، يسكنها شعب لغته العربية ، يشترك في عاداته وتقاليده ، وفي تاريخه العام ، وفي صلته بالشعوب الأخرى وفي ثقافته ومثله العليا ، تلك هي البلاد العربية ، وتسمى أحياناً العالم العربي ، وأحياناً أخرى الوطن العربي ، ويطلق على المجتمع الذي يتكون من سكانها (المجتمع العربي) .

الموقع والأرض :

تمتد الأرض التي يسكنها الشعب العربي من حدود إيران شرقاً إلى ساحل البحر المحيط الأطلسي غرباً ، ومن جبال طوروس على حدود تركيا شمالاً إلى ساحل جنوب الجزيرة العربية جنوباً ، وتقرب مساحة هذه الأرض من مساحة أوروبا ، وتزيد على مساحة أمريكا ، وهي تلي مساحة الاتحاد السوفيتي ، وتتوزع بين قارتي آسيا وأفريقيا .

وموقع البلاد العربية موقع هام جداً ، ذلك أنها تتصل بقارات ثلاث ، وبعدد كبير من الشعوب ، وبأربعة بحار هي (الأطلسي والمتوسط والأحمر والهادي) ولذلك كانت هذه البلاد نقطة اتصال بين قارات الأرض ، تخترقها طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية التي تصل أجزاء العالم بعضها ببعض .

وتمتاز هذه البلاد باتصال أجزائها وامتدادها على رقعة واسعة من العالم وإن كانت تحجز بينها بعض الحواجز الطبيعية كالصحارى ، وذلك مما سبب انقسامها الى مناطق وأقاليم وهي :

١ - منطقة بلاد الشام وتشتمل اليوم على سورية ولبنان والأردن وفلسطين .

٢ - منطقة العراق .

٣ - الجزيرة العربية ، وتشتمل على المملكة العربية السعودية (نجد والحجاز) واليمن وإمارات الجنوب العربي والكويت وقطر والبحرين وعمان .

٤ - وادي النيل ، ويشتمل على مصر والسودان .

٥ - المغرب العربي ، ويشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية .

وللبلاذ العربية فوق هذا امتدادات في جنوب المغرب العربي
وجنوب السودان وعلى سواحل افريقيا الشرقية .
ولكن هذه المناطق والأقاليم على تعددها وتنوعها يسكنها شعب
يشارك في جميع مقوماته الأساسية في الحياة ، وليس الاختلاف بينها
بأكثر من الاختلاف بين أقاليم البلاد الأخرى ومناطقها في تنوع
اللهجة اللغوية وبعض عاداتها في اللباس والطعام وغيرها ، في حين أن
عناصر الاشتراك والتقارب هي الغالبة غلبة واضحة كما سيبدو لنا
من دراستها .

وتمتاز هذه الأرض التي يسكنها الشعب العربي :

١ - بموقعها المتوسط الممتاز بين القارات والبحار والشعوب
واتصال أجزائها

٢ - بسعتها واشتمالها على أنواع مختلفة من الأقاليم من باردة
ومعتدلة ، إلى حارة استوائية ، ومن جبال شاهقة ، إلى سهول
منخفضة ، ومن صحارى واسعة ، إلى سهول مزروعة وغابات كثيفة ،
وبهذا التنوع يحصل التكامل بين الأجزاء ، ويسهل التعاون والتبادل
بين المناطق والأقاليم .

ولكن هذه البلاد العربية المتصلة في أرضها وسكانها ، تنقسم إلى

أقسام سياسية مصطنعة وتتألف من ثلاث عشرة دولة مستقلة هي :
(العراق وسورية والأردن ولبنان ومصر والسودان وليبيا وتونس
والجزائر والمملكة المغربية والمملكة العربية السعودية واليمن والكويت)
وأخرى تحت الحماية البريطانية كعمان المجاهدة لنيل الاستقلال وقطر
والبحرين وأمارات ومشيخات الجنوب العربي ، ومنها أرض عربية
محتلة مغتصبة وهي فلسطين .

السلطان :

يربو عدد سكان البلاد العربية في أيامنا هذه على ثمانين مليوناً ، أي
أنها تأتي في مرتبة الشعوب الكثيرة السكان في العالم . ولكن توزع
هؤلاء السكان يختلف في كثافته اختلافاً كبيراً بحسب المناطق ثروة
ورقياً . وأما الكثافة العامة الاجمالية فهي قليلة جداً ، ولذلك فإن
موضوع تحديد النسل الذي بحث واقترح في بعض المؤتمرات الدولية
بالنسبة للبلاد العربية أمر خطير جداً لا يقصد منه إلا تقليل سكان
المجتمع العربي وإضعافه اقتصادياً وعسكرياً .

تنسب هذه البلاد التي وصفناها وحددناها إلى العرب . ويوصف
أهلها كذلك بالعربية ، والشعب الذي يسكنها هو الشعب العربي .

فمن هم العرب ؟ وبم يمكن تمييزهم عن غيرهم ؟ وما هي العوامل الجامعة لهم والرابطة بينهم ؟

لقد كانت الدائرة العربية قبل الاسلام تحدد بحدود الجزيرة العربية مع امتدادات قليلة خارجها في جهات الشام والعراق بسبب هجرة بعض القبائل العربية في ذلك العصر واستقرارها في هذين البلدين . وكانت الجزيرة العربية محاطة من الشمال بأقوام تتصل بالعرب برابطة قديمة من القربى والتجاور وصلات اللغة . وهؤلاء هم الآراميون والكلدانيون والعموريون والكنعانيون والفينيقيون والعبرانيون . وتعرف هذه الأقوام باسم الساميين ، ولغاتهم باللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح . والحقيقة التاريخية تؤكد أن بين هذه اللغات تقارباً وتشابهاً واشتراكاً في النحو والمفردات والحروف ، كما تؤكد تجاور هذه الأقوام في الأرض واختلاطهم واشتراكهم في كثير من عصور التاريخ وفي العقائد الدينية . ويرجح مؤرخو هذا العصر أن المنبع الأصلي لهذه الشعوب هو الجزيرة العربية منها خرجوا في موجات متعاقبة خلال عصور متطاولة في التاريخ وتوزعوا في هذه البلاد القريبة من الجزيرة ما بين العراق والمغرب وحتى حدود بلاد الروم (تركيا حالياً) ولكنهم انتهوا إلى تكوين شعوب يتميز بعضها عن بعض في

اللغة والحياة الاجتماعية والسياسية .

ولكن الحدث التاريخي الهام الذي طرأ على هذه البقعة من الأرض
فغير تاريخها وصهرها في قالب واحد ، هو الفتوحات الاسلامية ، ذلك
أن هذه الفتوحات التي كان انطلاقها من الجزيرة العربية كانت لها
دأثرتان ، إحداهما واسعة وهي التي بلغها الاسلام حتى عمها جميعاً ،
والثانية هي الأصغر ، وهي التي عم فيها الاسلام واستعرب أهلها .
ذلك أن سكان هذه البلاد المحيطة بالجزيرة والقريبة منها كالعراق
والشام ومصر والمغرب قد انتشرت فيهم اللغة العربية وانمحت اللغات
السامية السابقة ، اللهم إلا قليلاً من سكان المغرب الذين بقيت فيهم
اللغة البربرية ، ولا تزال ، مع اتخاذهم العربية لغة الثقافة والدين .
وقد ساعد على هذا التعريب أمور كثيرة : منها انتقال قبائل
كثيرة من عرب الجزيرة واستقرارهم في هذه البلاد واختلاطهم بأهلها .
ومنها سبق هجرة بعض القبائل اليها قبل الاسلام ، ومنها قرب السكان
الأصليين من العرب في أصل الجنس واللغة والمعتقدات ، ومنها دخول
أكثرهم في الاسلام . وهكذا انتهى الأمر إلى أن يسكن هذه البلاد
شعب لغته العربية يرجع أكثره إلى أصل عربي أو مستعرب ، ويدين
أكثر أفراده بالاسلام ، ويشتركون في ثقافة عربية واحدة ، وفي
تاريخ مشترك قديم وحديث ، ذلك هو (المجتمع العربي) .

المجتمع العربي والعالم الإسلامي

إذا ألقينا نظرة عامة شاملة على البشرية في العصر الحاضر وجدنا أنها تتألف من شعوب شتى وقوميات متعددة مختلفة ، وانها من جهة أخرى تتألف من عوالم كبرى يشمل كل واحد منها على شعوب عديدة تشترك في بعض المقومات وترتبط ببعض الروابط التي تقرب بينها وتجعلها تلتقي عند بعض أهداف الحياة وقيمها ومثلها . وهذه الروابط هي روابط الفكرة المشتركة وفلسفة الحياة المتشابهة والعقائد المتماثلة أو المتقاربة ، ويزداد التقارب بين الشعوب بازدياد التقارب في الفكرة والمفاهيم والعقيدة . والعالم اليوم ينقسم انقساماً واضحاً إلى :

١ - عالم إسلامي ٢ - عالم شيوعي

٣ - عالم ديمقراطي مسيحي ٤ - عالم وثني

ونستطيع بكل سهولة أن نصور مخطط العالم الجغرافي ونلون كل عالم من هذه العوالم بلون خاص ، ونجد حينئذ أن كل واحد منها مستقر في رقعة خاصة به من هذه الأرض ، والغالب أن هذه الرقعة

متصلة . فالعالم الشيوعي يمتد فوق آسيا وأوروبا باتصال ما بين الصين وروسيا، والعالم الديعراطي المسيحي يشتمل على أوروبا وأمريكا، والعالم الاسلامي يمتد من أواسط آسيا حتى أقصى افريقيا غرباً وأواسطها جنوباً. وأما العالم الوثني فينقسم ما بين آسيا وافريقيا في رقتين منفصلتين، وليست الوثنية في الأصل عقيدة واحدة ولا ديناً واحداً مع وجود صفات مشتركة بين العقائد الوثنية .

وإذا أردنا أن نحدد موقع العالم العربي من العالم وجدنا أنه يقع في العالم الاسلامي وأنه يرتبط مع شعوب العالم بروابط كثيرة في الماضي والحاضر. أماصلاته بالعالم الاسلامي وشعوبه فهي تتجلى في الأمور التالية:

١ - فان بين شعوب العالم الاسلامي اشتراكاً في النظرة إلى الوجود وفلسفة الحياة ومفاهيمها العامة ومثلها العليا . وذلك لأن انتشار الاسلام بين هذه الشعوب أوجد بينها وحدة في هذه المفاهيم المنبثقة عن عقيدة الاسلام وشريعته ونظراته التي تضمنها القرآن والسنة ومصادر الثقافة الاسلامية التي تفرعت عنها .

وهذه النظرة المشتركة نجدها عند الخاصة والعامة من أبناء هذه الشعوب رغم مزاحمة النظرات الأخرى الأجنبية لها ، تلك النظرات والفلسفات المستقاة من الثقافة الغربية ، حتى أن التلاقح بين الثقافتين

أصبح صفة مشتركة بين هذه الشعوب وقد أحدث آثاراً متشابهة وولد مشكلات متماثلة في مجتمعاتها .

وقد ولدت هذه النظرة الاسلامية المشتركة في هذه الشعوب ، ومن بينها الشعب العربي ، مواقف متشابهة أو متماثلة من القضايا المعاصرة والمشكلات الحديثة ، سواء في السياسة وأنظمتها ، أو الاقتصاد ، أو الأسرة والمرأة ، أو التربية والتعليم ، أو العادات الجديدة .

٢ - يكون الاسلام وثقافته جزءاً أساسياً من ثقافة هذه الشعوب ، فهي تعتبر دراسة القرآن الكريم ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامي ، وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية ، ثقافة أساسية تعلمها لأبنائها في مختلف مراحل التعليم ، وتحل اللغة العربية مكانة عالية لأنها الوسيلة لفهم هذه الثقافة من مصادرها الأصلية وتسعى إلى تعلمها ونشرها .

وللغة العربية والثقافة الاسلامية في جميع الشعوب الاسلامية مراكز منتشرة ومعاهد ومؤسسات ومدارس من مختلف المستويات والأنواع ، بل إن بعض هذه البلاد كالبلاستان والهند يعتبر من أهم مراكز الثقافة العربية والاسلامية بما ألف فيها من كتب قديماً

وحديثاً ، وما نشر في مطابعها ومعاهدها ، وما أنجبت من علماء في الدين واللغة. هذا وإن لغات الشعوب الإسلامية تشترك مع اللغة العربية في الكثير من المفردات وتفاوتت نسبة المفردات العربية في تلك اللغات وتزيد في بعضها على النصف من مفرداتها كما أن بعض هذه اللغات وهي أكثرها انتشاراً تكتب بالأحرف العربية كما هي الحال في الفارسية وهي لغة إيران وأفغانستان واللغة الأدبية لمسلمي الهند وكذلك في اللغة الأوردية لغة المسلمين في الهند والباكستان واللغة الملايوية.

٣ - وتعتبر الشعوب الإسلامية أن تاريخ الإسلام تاريخها الذي تعزى بأعجابه ، وتفتخر بماثره وآثاره الحضارية وفتوحاته المحررة للبشر من الأساطير والخرافات والعقائد الوثنية والعادات القبيحة ، الناشرة للعقائد الصحيحة والمفاهيم الراقية والمؤسسات العلمية والأنظمة العادلة. وترى في أبطال هذا التاريخ أبطالاً للإنسانية ، وترى في اشتراكها في هذا التاريخ وفي دخول الإسلام إلى بلادها مسلماً أو حرباً اشتراكاً في تحرير البشرية وتقديمها وأخذها في طريق الخير والسعادة للإنسانية . ويعتبرون الفاتحين الأولين والناشرين للإسلام أعلام هذه المعركة التحريرية وأبطالاً وأنصاراً لله يتقرب إليه بذكر سيرتهم ودراساتها .

٤ - إن هذا الاشتراك في العقيدة والثقافة والتاريخ ولد في

نفوس أبناء هذه الشعوب عواطف متشابهة ، ومواقف في الحياة متجانسة ، وآمالاً وأهدافاً مشتركة ، سواء أكانت هذه الأهداف نظرية مثالية كانتشار عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إلى العالمين ، وبالقرآن كتاباً إلهياً ودستوراً للحياة ، أم كانت عملية كتحرير فلسطين من أيدي الصهيونيين الآثمين ، وتحرير البلاد العربية والإسلامية من الاستعمار ، ولذلك كانت مواقف أكثر حكومات هذه الشعوب في القضايا الدولية مواقف طيبة في نصرة الحق في جميع القضايا العربية والإسلامية ، إلا بعض الحكومات التي تأثرت بالاستعمار والصهيونية العالمية تأثراً كبيراً غلب على تأثير شعوبها ، والعبرة على كل حال للشعوب لا للحكومات في هذا الموضوع . وإن اندونيسيا والباكستان والأفغان ، وهي أكبر الدول الإسلامية ، مع مجموعة الدول العربية ، كانت إلى جانب البلاد العربية في جميع القضايا الدولية ، وفي مقدمتها فلسطين والجزائر أثناء نضالهما في سبيل الاستقلال . أضف إلى هذا ماتكنه هذه الشعوب من محبة بالغة عميقة وتعظيم وتقدير كبير للشعب العربي الذي تعتبره مصدر الخير السعادة ، لأن الإسلام ظهر في أرضه ، ونزلت آياته بلغته ، وكان الرسول العظيم والمنقذ للبشرية ﷺ من أبنائه .

٥ - وقد أوجد الإسلام بتعاليمه العملية ، وأحكامه المتعلقة بأمور

الحياة ، من طعام وشراب ولباس وتنظيم للمعاملات وللأسرة ، عادات متشابهة جداً في جميع هذه الميادين ، ذلك أن المسلم يراعي في طعامه أحكام الشريعة فيما يؤكل وما لا يؤكل ، وكذلك في استعماله للأشياء وفي حكمه عليها حسناً وقبحاً . كما أن تنظيم الزواج والطلاق والارث وعلاقات أفراد الأسرة المادية والمعنوية تدخل في نطاق أحكام الاسلام ويطبقها المسلمون فعلاً . ولذلك نشأت في الشعوب الاسلامية عادات متشابهة في حياتهم اليومية ، في حياة الفرد والأسرة في البيت وفي المجتمع وعلى اختلاف ألوانهم وأشكالهم وبيئاتهم . وهذا الاشتراك في العادات اليومية العملية . إذا أضفتم إلى تلك الروابط المشتركة في العقيدة والثقافة والتاريخ ، وجدت نفسك أمام شعوب تتقارب وتشابه وتعاطف وتعاون ، أو قل إن بينها من أسباب الحياة المشتركة والصفات المتشابهة والاتجاه المتقارب ما يسهل تعاونها ويمهد لاشتراك أوثق ويجعلها في موقف تختلف عنه بقية الشعوب التي لا تشترك معها في هذه الأمور الحيوية وفي هذه المجالات . وإن الذي ينكر هذه الحقيقة ويتجاهلها إما أن يكون ذا فكرة سابقة خاطئة لا تمكنه من التجرد والحكم الموضوعي ، وإما أن يكون مدفوعاً بهوس خاص ، أو أن يكون هدفه الكيد للعرب والعمل لضعافهم ومحاربة الاسلام بدافع استعماري أو تعصبي ذميم .

العولم الاخرى

يجاور العالم الاسلامي ويحيط به عولم أخرى يجمع بين أجزاء كل منها ، على اختلاف الشعوب التي تتألف منها ، حضارة واحدة أو متشابهة وثقافة مشتركة ، أو على الأصح مفاهيم وعقائد مشتركة ، فهي ليست تكتلات سياسية خصب وإنما هي مجموعات حضارية وعقائدية ، وهذه العولم هي :

١ - العالم المسيحي الديموقراطي :

وهو العالم الذي يتكون من أكثر بلاد أوربا ومن أمريكا وتقوم فيه حضارة واحدة في أصولها التاريخية وعناصر تركيبها ومفاهيمها الحاضرة ومستواها الاجمالي . فهي كلها تستقي من الديانة المسيحية ومن الثقافة اليونانية القديمة وما لقحت به من الحضارة الاسلامية ، وما نشأ عن تفاعل هذه العناصر في الحضارة الحديثة من صناعة كبرى ونظم اقتصادية كانت في الأصل رأسمالية ثم عدلت بالاقتصاد الموجه الاشتراكي ، ومن مفاهيم عن الحرية والديمقراطية . ولهذا العالم صلوات عديدة متنوعة ، قديمة وحديثة سامية وغير سامية ، بالعالم الاسلامي ومنه العالم العربي فمن هذه الصلوات :

١ - الصلة الثقافية : فقد كانت الفلسفة اليونانية مشتركة بينهما

كما أخذت أوروبا عن العالم الاسلامي كثيراً من نظريات علم الكلام والعلوم المادية كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء . ثم كانت الصلة الثقافية الحديثة حين أخذ العالم العربي والعالم الاسلامي جميعهما عن أوروبا ثقافتها وعلومها في القرنين الأخيرين . ويضاف إلى ذلك ما بين الاسلام والنصرانية من مفاهيم دينية مشتركة في الأصل .

٢ - الصلة الاقتصادية : وبين العالمين صلات تجارية قديمة ، ولكنها ازدادت في العصر الحديث زيادة كبيرة .

وهذان النوعان من الصلات أحدثا تأثيراً كبيراً واشتراكاً في المفاهيم والعادات الاجتماعية .

٣ - الصلة الحربية : بين العالم المسيحي الديقراطي والعالم الاسلامي ومنه العالم العربي صلات حربية عدائية ، بدأت بالحروب الصليبية ثم انتهت إلى الحروب الاستعمارية ، ثم إلى الوضع الاستعماري الذي استمر مدة طويلة وأحدث جفاء وعداء بين العالمين الاسلامي والغربي ولا تزال بقاياه موجودة قائمة . وإن كانت أكثر البلاد العربية والاسلامية قد استقلت وتحررت ، فقد بقي قسم قليل منها لم يتحرر ، وبقي بعضها في النفوذ الاستعماري أو المطامع الاستعمارية . وقد سببت هذه

الصلات العدائية اتجاهها ثقافياً معادياً للإسلام ، ينحرف عن البحث العلمي المجرد وعن الأمانة العلمية في سبيل تحقيق فكرة استعمارية ، أو جرياً مع التعصب على الإسلام . وقد كانت هذه النزعة في العصر الماضي أشد مما هي عليه الآن ، ومع ذلك فقد وجد من الباحثين والمستشرقين من تجرد عن الهوى والعصية ، أو حاول هذا التجرد ، فانصف العرب والإسلام في أبحاثه ومؤلفاته بقدر ما تسمح به بيئته وثقافته .

وينبغي أن لا ننسى أن لليهود ، وهم منبثون في جميع أجزاء العالم المسيحي ولهم في كل بلد نفوذ وأثر كبير ، نصيباً أساسياً في إبقاء هذه الروح العدائية عن طريق العلم والسياسة والصحافة والنشر .

وان مستقبل العلاقات بين العالمين الإسلامي والعربي والأوروبي المسيحي مرهون بنصفية الاستعمار وبناء العلاقات السياسية والاقتصادية على أساس المساواة والمصالح المتبادلة ، ومرهون كذلك بنصفية الروح العدائية المتعصبة التي ينظر الغرب من خلالها إلى عالمنا العربي والإسلامي وعلى أساسها يسير في أبحاثه العلمية وما ينشره في صحفه ومجلاته ومؤلفاته ولا شك أنه سيجد حينئذ في الصلات القديمة بين الثقافة العربية واليونانية والرومانية منذ عصور طويلة ، وفي المفاهيم الدينية المشتركة

والمختلفة عن الديانات الوثنية والنظريات الالحادية ، سيجد في ذلك كله وفي مجالات الاقتصاد والصناعة أسباباً للتعاون الشريف القائم على المساواة والعدالة والحق .

٢ - العالم الشيوعي :

وهو عالم يتكون حالياً من جزء انسلخ من العالم المسيحي الغربي وجزء آخر في آسيا كان من العالم الوثني وجزء من العالم الاسلامي الأوربي والآسيوي . يختلف هذا العالم عن المجتمع العربي وعن العالم الاسلامي اختلافاً جوهرياً أساسياً من حيث فلسفته وعقيدته ومفاهيمه فالأساس الفلسفي الاعتقادي الذي تقوم عليه الشيوعية هو المادية المنافية للعقائد الدينية منافاة تامة . والاسلام هو الأساس الفلسفي الاعتقادي لمجتمعات العالم الاسلامي ، وبين الاسلام والفلسفة المادية تنافر واختلاف أساسي .

يضاف إلى ذلك أن في داخل العالم الشيوعي شعوباً إسلامية فرض عليها النظام الشيوعي والعقيدة الشيوعية . والعالم الاسلامي يعتبر هذا الحادث خسارة كبرى وضربة شديدة للإسلام مهما حاولت الدول الشيوعية أن تخفف من ألم هذه الضربة بفسح المجال للمسلمين بعد الحرب العالمية الثانية أن يمارسوا شعائرهم الدينية الخاصة ، وذلك دون

أن يغيروا من موقفهم الأساسي من الدين الذي يعتبرونه خرافة
ومخدرًا للشعوب .

أما الصلات العلمية بين العالم الاسلامي والشيوعي فهي تتأثر أولاً
بما كانت عليه الصلات مع روسيا السابقة الأرثوذكسية المذهب
والصين البوذية سابقاً ، وتتأثر بوجه خاص بالأوضاع السياسية
والدولية لكل بلد من البلدان الاسلامية وبسياسة الاتحاد السوفيتي
والصين من جهة أخرى . فبعض البلاد الاسلامية اتجهت مع محاربة
الاستعمار الغربي الذي كانت تتلظى بناره نحو الحياد وعدم الانحياز
وبالتالي إلى العلاقات الحسنة مع الاتحاد السوفيتي لتستعين بهذه الصلة
الحسنة لصد عدوان المعسكر الآخر ، وللاستفادة من الامكانيات
الاقتصادية والحربية التي تتيحها الدول الاشتراكية للدول الناشئة أو
المتحررة من الاستعمار . وقد أمكن السير في هذه السياسة بسهولة في
البلاد الاسلامية ، لأن الاسلام يحيز من الوجهة الخارجية أن تهادن
الدول الاسلامية دولة أخرى ولو كانت عقيدتها مخالفة للاسلام
وللاديان السماوية إذا وجدت في ذلك مصلحة لها ، وفي صلح الحديبية
في السيرة النبوية ما يؤيد ذلك . على أن العلاقات بين العالمين الاسلامي
والشيوعي من العسير أن تتعدى هذه المرحلة من العلاقات الاقتصادية

والخارجية لما بينهما من تباين تام في الأساس الاعتقادي، بل من حرب بين فكرتين، إحداهما دينية تحارب الاتحاد، والثانية إلهادية تحارب الدين، وإن وجود أحزاب شيوعية في داخل البلاد الإسلامية مما يزيد العلاقة بين العالمين جفاءً وبعداً. لأن الشعوب الإسلامية تقف من هذه الأحزاب موقفاً عدائياً بدافع من دينها وعقيدتها، والمجتمع العربي يقف كذلك هذا الموقف نفسه، وهذا قد يسبب بطريقة غير مباشرة شيئاً من الاستياء على الأقل في المراكز الشيوعية العالمية الموجودة في داخل البلدان الشيوعية. ولذلك كان حسن الصلة بين العالمين مرهوناً بوقوف العالم الشيوعي موقف الاحترام لعقائد البلاد العربية والإسلامية وعدم المساس بها وقطع كل صلة ظاهرة أو خفية مع أي هيئة أو حزب في داخل هذه البلاد، وإعطاء الحرية الدينية الكاملة للشعوب الإسلامية التي تعيش في ظل الحكم السوفيتي أو الصيني.

٣ - العالم الوثني الآسيوي والأفريقي :

أما صلة العالم الإسلامي بالعالم الوثني فانها تختلف من شعب إلى شعب، ذلك لأن بعض الشعوب الوثنية لم يحصل بينها وبينه عداوة أو حروب كما هي الحال مثلاً في سيلان وفي بورما وفي بعض شعوب أفريقيا. وبعضها حصل بينها وبين الشعوب الإسلامية خصومة أو عداوة كما

هي الحال في الهند بين الهنالك والمسلمين .
ومن هذه الشعوب الوثنية من تفتح أبوابها للإسلام فينتشر بينها
كما هو واقع في افريقيا .

والعالم الوثني لا يؤلف وحدة مترابطة ، بل هو مؤلف من شعوب
عديدة في آسيا وأفريقيا تدين بعقائد متشابهة أو ذات طبيعة وخصائص
مقاربة في كل منها مثلاً حيوان مقدس أو أكثر ، وفيها تقديس
لتمثيل وحجارة خاصة . وفي العالم الوثني كثلثان أو دينان كبيران وهما
البوذية المنتشرة في الصين والهند الصينية (بورما ، تايلاند ، كمبوديا)
والبرهمية بفروعها المنتشرة في الهند .

وتغزو هذا العالم الوثني ثلاثة تيارات أو اتجاهات ، أحدها المسيحية
ببعثاتها التبشيرية ، والاسلام بانتشاره الطبيعي ولا سيما في أفريقيا ،
والفلسفات المادية الحديثة على اختلاف صورها . وصلة المجتمع العربي
والشعوب الاسلامية الأخرى بهذا العالم في المستقبل إنما تكون
بحسب اتجاهه الفكري والعقائدي من جهة ، ومواقفه السياسية من
جهة أخرى من القضايا العربية والاسلامية .

القبيلة . القومية . الانسانية

لا بد لنا قبل بيان العوامل المؤثرة في تكوين القوميات والعوامل التي تكون الأمة وبيان مدلول الأمة والقوم والشعب والقومية من إلقاء نظرة تاريخية عامة نعرفنا أشكال المجتمعات البشرية واتجاهها في التطور .

يبدو للنناظر في الحياة البشرية أن القبيلة هي المرحلة الأولى التي صرحت البشرية بها ولا يزال بعضها يمر بها حتى اليوم ، وإن القبائل التي ترجع إلى أصل واحد وتعيش متجاورة في أرض واحدة وتحدث بلغة واحدة أو لهجات متقاربة ، يزداد الاشتراك بينها في شؤون الحياة وتكثر الصلات ويقوى التعاون حتى تؤلف شعباً واحداً أو قوماً . كذلك نشأت الأقوام المعروفة من عرب وآتراك وهنود وروس وانكليز وإيطاليين وألمان مثلاً . ولا تزال معالم الحياة القبلية ورواسبها باقية في كثير من الشعوب الراقية حتى اليوم ، لا يعرفها إلا أبناء تلك الشعوب ومن خالطهم مخالطة طويلة وعرف دخائل حياتهم ، على أن

القوم قد يتكون من مجموع شعوب صغيرة متقاربة ، وكل شعب يتكون في الأصل من مجموع قبائل تقاربت وانصهرت. إن قطع هذه المرحلة من القبيلة إلى القومية لا يتم في وقت واحد في جميع البشرية ، فان بعض الشعوب قطعها من زمن قديم كالعرب والفرس ، وبعضها حديثة العهد بها كأكثر شعوب أوربا التي تكونت في خلال هذه القرون الماضية القريبة ، وبعضها لم تجتز بعد هذه المرحلة .

في المرحلة القبلية تكون القبيلة هي الاطار الوحيد لنشاط الأفراد وفعاليتهم ، ويكون الارتباط داخل هذا الاطار وثيقاً والتضامن شديداً إلى حد العصبية ، وتكون العلاقة فيما وراء القبيلة معدومة أو ضعيفة أو سلبية ، وحينما تنتقل القبائل إلى مرحلة تكوين شعب واحد تنشأ بين أفراد القبائل المتقاربة صلات من التعاون تزداد قوة مع الأيام ، وتقل العصبية داخل القبيلة لتخلي مكانها لهذه الصلات الجديدة الناشئة. على أن العاطفتين القبلية والقومية تعيشان معاً مدة طويلة وربما حصل بينهما صدام ونزاع خلال عصور طويلة إلى أن يتم انصهار القبائل في قومية واحدة .

وتبدأ القومية كذلك حياتها كما بدأت القبائل في دائرة مغلقة وفي شعور من التضامن الشديد داخل القومية وشعور من العداء أو

السلبية لما هو خارج القومية ، هو شعور بأن الآخرين (غرباء)
و (أجنب) مع ما كانت تحمل هذه الألفاظ من معنى الوحشة والبعد
والجفاء إذ لم تحمل في ذاتها معنى الكره والبغض والعداء .

وهكذا تكونت في البشرية أقوام وشعوب خلال عصور التاريخ
ولا تزال هذه العملية الاجتماعية ، عملية تكوين الشعوب سائرة في
طريقها ، فان بعض الأقوام تتكون في هذا العصر وبعضها سائرة نحو
التكوين آخذة في الانتقال من القبلية إلى القومية وفي تحديد معالم مجتمعيها
الجديد وانصهار عناصره ، ويعين على ذلك نشوء إطار سياسي كما هي
الحال في بعض الشعوب الأفريقية التي تتحدد معالم قومياتها في العصر
الحاضر ويساعدها على ذلك نشوء دول مستقلة تحررت من الاستعمار ،
وفي إطارها ستتفاعل العوامل وتنصهر القبائل . وإن وحدة المانيا
السياسية هي التي أتمت وأكملت انصهار أجزائها و قبائلها القديمة في
قومية واحدة ، ونشوء دولة يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الأخيرة
ساعد على ظهور معالم القومية السلافية التي لم يتح لها في التاريخ أن
تكون مجتمعة موحدة مستقلة فقد كانت مجزأة وتابعة لدولة أخرى أو
لأكثر من دولة .

وتتفاعل أجزاء الشعب الواحد أو القومية الواحدة خلال عصور

التاريخ بسبب الاشتراك في الأرض والأصل واللغة والمصالح والتاريخ
والمعتقدات والعادات . وكلما كانت عوامل الاشتراك هذه أكثر
شمولاً وامتداداً وأعمق وأقوى وأدوم على الزمن ، كان ارتباط أبناء
الشعب وتضامنهم أقوى وكان ظهور هذه القومية بمظهر الجسم الواحد
ذي الحياة الواحدة أجلى وأوضح .

ولكن التطور البشري لم يقف عند هذا الحد فان تكاثر عدد البشر
في كل شعب ونمو الحياة وازدياد الفعاليات البشرية أدى إلى اتصال
الشعوب بعضها ببعض ونمو العلاقات السامية بينها سواء في ميدان
التجارة والاقتصاد أو في ميدان الأفكار والمعتقدات أو في مجال
العلم والثقافة .

ولا شك أن الاتصال بين الشعوب كان على مراحل طويلة بدأت
بالخروج عن الانعزال وحدوث علاقات ولو كانت حربية ، فان الحرب
نفسها صلة بين متحاربين يتأثر أحدهما بسلاح الآخر وطريقته في
التفكير وهي صلة تنتهي بالهدنة والسلم ، والسلم يؤدي إلى نوع آخر
من الصلات .

وهنا بدأت مرحلة جديدة هامة في تاريخ البشرية وهي مرحلة
الاتصال بين الشعوب والأقوام ، ونشوء صلات إنسانية مشتركة

بينها ، وتكوين صعيد تلتقي عليه في ميادين الفكر والدين والاقتصاد
والعادات وغير ذلك من نواحي الحياة ، فاشتركت شعوب وقوميات
عديدة في عادات مشتركة أو في دين واحد أو في طرائق الحياة
الاجتماعية أو السياسية ، وتطورت العلاقة القديمة التي كانت علاقة
التضامن إلى حد العصبية داخل القومية الواحدة وعلاقة العداء خارجها
إلى علاقة مزدوجة فهي تضامن في الداخل وتعاون في الوقت نفسه
في الخارج على الصعيد الانساني ، وسار التطور البشرى في اتجاهه نحو
توسيع هذا الصعيد امتداداً وعمقاً ولا يزال يسير في هذا الاتجاه سيراً
لا يقف عند حد .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التعاون أوثق وأقوى بين الشعوب
المتقاربة في الأرض المرتبطة بأنواع من الصلات المشتركة كالاشتراك
في الدين والاعتقاد أو في اللغة أو في التاريخ أو في الثقافة أو في غير
ذلك من أسباب الاتصال والاشتراك ، وكلما تعددت أسباب الاتصال
وتداخلت وتظاهرت وتعاونت ، كان الصعيد المشترك بينها أوسع
وأعمق والصلة بينها أوثق وعواطف المودة أقوى ومجالات
التعاون أكثر .

فالصعيد المشترك بين الانكليز والأمريكيين بسبب الاشتراك في

اللغة والثقافة ، والصعيد المشترك بين البلدان الشيوعية بسبب وحدة العقيدة والنظام ، والصعيد المشترك بين شعوب العالم الاسلامي بسبب وحدة العقيدة والمفاهيم والاشتراك في بعض نواحي الثقافة والتاريخ ، تجعل كل مجموعة من هذه الشعوب تشترك في أمور لا تشترك فيها مع الشعوب الأخرى ، وتميز عنها وتستطيع أن تحقق من أسباب التعاون ما لا تستطيعه مع غيرها على الصورة نفسها .

وهكذا فاننا نرى في البشرية نزوعاً إلى الخارج بدءاً من نقطة الانطلاق الأولى ، وكل ما تكسبه في المرحلة الأولى تضيفه إلى ما بعدها ، فالتعاون في داخل القبيلة والتضامن إلى حد العصبية هو الذي انتقل فيما بعد إلى تعاون وتضامن داخل الشعب الواحد ، فائن خسر جزءاً منه في داخل القبيلة ، وهو جزء العصبية المفرطة ، فقد ربحه وأضافه إلى المرحلة الثانية ، مرحلة التعاون في داخل القومية الواحدة ، وما خسره كذلك من العصبية القومية التي هي أكثر من التعاون والتضامن وأضافه إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة التعاون الانساني بين أبناء القوميات والشعوب .

ويبدو لنا أن البشرية آخذة نحو تكوين كتل حضارية تتألف كل واحدة منها من عدد من الشعوب أو القوميات التي تشترك في عوامل

كثيرة ، كالمعتقدات والمفاهيم والتشريعات والنظم والثقافة والعادات ، سواء أشرت في تنظيم سياسي واحد ، أي في دولة واحدة ، أو في اتحاد دول ، أو في دولة اتحادية ، أم لم تشارك . وتفاعل هذه الشعوب المشتركة في حضارة واحدة في داخل اطار هذه الحضارة وتعاون في مجالات كثيرة ، وتزداد بينها عواطف الإخاء والمودة والمحبة ، وتشتد الرغبة في التعاون في أهداف الحياة وغاياتها والرغبة في إقامة حياة مشتركة خصبة عميقة تنسق فعاليات الشعوب المشتركة فيها وتستفيد من مختلف مزاياها وخصائصها وتنوع طاقاتها وإمكاناتها وإنتاجها المادي والمعنوي . ثم تلتقي الحضارات أو الكتل الحضارية في صعيد مشترك كذلك وتعاون في مجالات مشتركة وتختلف في مجالات أخرى غيرها . كل هذا يجري دون أن تذوب الأقوام والشعوب . بل تحتفظ بذاتها وتعاون مع غيرها . فان ظاهرة انقسام البشرية إلى أقوام يبدو أنها ظاهرة باقية غير زائلة ، وإنما الذي يزول هو العصبية القومية ، كما زالت العصبية القبلية والأنانية الفردية المفرطة من قبل ، ولكن القوميات كوحدات اجتماعية يبدو أنها باقية ، وقد يكون في بقائها الخير كبقاء ذاتية الأفراد في المجتمع الواحد . فان من سنن الله تعالى في الكون تعاون الأنواع المختلفة والأجناس المتباينة ، ومن اختلاف خصائص

الأفراد ومواهبهم وتنوع إلتاجهم ينشأ المجتمع ويتكامل ، ومن اختلاف الشعوب والأقوام وتعاونها على اختلاف مواهبها وخصائصها وإمكاناتها تنشأ الحضارة الانسانية وتتكامل . وإنما المهم هو اتجاهها جميعاً نحو التعاون الانساني على أساس من العدالة والمساواة في الكرامة الانسانية .

نستطيع بعد هذه النظرية التطورية التاريخية التي قدمناها أن نحدد مفاهيم بعض الألفاظ المستعملة فى هذه الأبحاث :

فالقوم هم جماعة بشرية نشأت من اندماج قبائل ترجع إلى أصل واحد أو أصول متقاربة وتسكن أرضاً واحدة ولها لغة واحدة .

والقومية هي هذا المجتمع القومي بجميع عناصره المادية والمعنوية من أرض ولغة ومعتقدات ومفاهيم وأخلاق وثقافة وحضارة في حاضره وماضيه . فالقوم هم أفراد البشر الذين تجمعهم هذه الروابط كلها أما القومية فهي القوم مع جميع العوامل الحية المشتركة فيما بينهم والتي جمعت بينهم المادية منها والمعنوية على تعاقب العصور وتوالي الأجيال .

والشعب تطلق على القوم وتطلق على مادون ذلك أحياناً ، فيقال : الشعب العربي ، والشعب الفارسي ، والشعب الروسي ، ويقال أيضاً

الشعب الجزائري ، والشعب السوري ، بل قد يقال الشعب الدمشقي
والبغدادى .

الامة

إذا عملت عوامل التوحيد والصهر والانسجام في شعب من الشعوب
كالاشتراك في اللغة والحياة المشتركة الطويلة أي التاريخ والثقافة
والمعتقدات والمبادئ والأفكار والعادات والأخلاق ، تألف منه
وحدة اجتماعية حية نسميها أمة ، والحالة الطبيعية الغالبة أن يكون
لهذه الأمة كيان سياسي واحد يحفظها أي أن تؤلف دولة .

إن الخاصة الأساسية المميزة للأمة هي وجود رغبة عامة في الحياة
المشتركة أي تحقق الانسجام بين أفرادها حتى يتكون من المجتمع
وحدة حيوية يمكن أن نسميها أمة .

إن وجود عدد كبير من البشر يعيشون في أرض واحدة أو بلد
واحد لا يجعل منهم أمة ولا مجتمعاً يشعر بوحدته وتميزه من غيره إذا
لم تؤلف بينهم عوامل مشتركة عديدة مادية ومعنوية ، وإذا لم توجد
هذه العوامل المقربة الموحدة كان بين أفراد هذا المجتمع وكتله وأجزائه
تباعد وتنافر ولو سكنوا أرضاً واحدة وتكلموا بلسان واحد وانقسموا
إلى أصل واحد .

ولكن تحقق الانسجام بين أفراد المجتمع وأجزائه وتأليفه لما سميناه
وحدة اجتماعية حية يمكن أن يتم على مستويات مختلفة أو في مراحل
عديدة من التطور البشري الذي وصفناه آنفاً فيمكن أن يتم في قبيلة
كبيرة بدافع الارتباط النسبي الدموي وفي القومية الواحدة أو الشعب
الواحد بتأثير مجموعة من العوامل المادية والمعنوية وفي نطاق
اجتماعي أوسع من القومية كأن تؤلف مجموعة من الشعوب كتلة
حضارية عقائدية واحدة سواء جمعتها دولة واحدة أو اتحاد دول
أو لم تجمعها ، وذلك بأن تتحقق الرغبة بين أبناء هذه الشعوب في الحياة
المشتركة ويتحقق الانسجام بينها بسبب الأخذ بفلسفة واحدة
ومفاهيم واحدة في الحياة وبالتالي بنظم وعادات واحدة ، ويمكن أن
نضرب على ذلك مثلاً من التاريخ الحديث والقديم . فمجموعة
الشعوب التي تعيش في إطار الاتحاد السوفيتي هي قوميات عديدة ،
فاذا كانت الشيوعية قد تغلغت فيها ونفذت إلى أعماقها حتى صهرتها
في بوتقة عقيدتها ومفاهيمها ونظمها حتى أصبحت تصدر كلها في
تفكيرها وعواطفها وحركاتها الاجتماعية والسياسية بوحى من هذه
العقيدة وبدافع منها فقد تم الانسجام والرغبة في الحياة المشتركة وتم

كذلك تأليف وحدة اجتماعية حية وكونت أمة. وكذلك الشعوب التي دانت بالاسلام في عصره الأول فقد أخذت بفلسفة واحدة في الحياة لها مفاهيمها واتجاهاتها فعملت متعاونة على إنشاء حضارة واحدة هي الحضارة الاسلامية ساهم فيها كل منها بانتاجه حسب قدرته وطاقته وإمكانياته وكانت لهم اتجاهات واحدة في الحياة واعتقدوا بقيم واحدة في الحياة واتخذوا من العادات والانظمة الاجتماعية ما يتناسب مع تلك القيم والمبادئ ويتفرع عنها ، وكانت لهم كذلك ثقافة واحدة أساسها القرآن الكريم والتراث النبوي أو السنة وما أضيف اليها من فهم ونظريات في الأجيال المتعاقبة ومن الثقافات الأجنبية المقتبسة، وكانت لغة هذه الثقافة اللغة العربية ، وجمعهم كذلك في بعض الفترات التاريخية دولة واحدة ، وكان لهم حتى في حال انقسامهم الى دول تاريخ مشترك .

ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نسمي هذه الكتلة الحضارية التي تؤلف وحدة اجتماعية منسجمة في ذلك العصر أمة ولو كانت مؤلفة من عدة شعوب ؟

إن في تثبيت مدلول الأمة في شكل من أشكال تطور المجتمعات البشرية جهوداً في الفكر ومحاولة لتثبيت حقيقة حية متحركة متطورة

ونظرة إلى الحياة الاجتماعية على أساس ركودها وسكونها .

ويتبين مما تقدم أن بين القومية والأمة تداخلاً واختلافاً في آن واحد فالقومية يمكن أن تؤلف أمة إذا تم لها النضج وتجاوزت المرحلة الابتدائية وتحقق فيها الانسجام ، كما يمكن أن تؤلف أكثر من أمة إذا انقسمت إلى قسمين مختلفين في فلسفة الحياة ومفاهيمها اختلافاً لاالتقاء معه .

فلهند في الأصل قومية واحدة وجنس واحد ، ولكنها بسبب اختلاف النظرة إلى الحياة بين الهنالك والمسلمين اختلافاً كلياً يصعب معه الالتقاء لاتجاه كل من الفريقين إلى إنشاء حياة وحضارة تختلف عن حياة الآخرين في مبادئها ومفاهيمها وأسسها في العادات الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية ، كان انقسام الهند وهي قومية واحدة إلى وحدتين اجتماعيتين ، أي إلى أمتين أمراً طبيعياً ، ومما يلاحظ أن الهند والباكستان تتجهان اتجاهين مختلفين في اللغة وسائر مقومات الحياة ، فبينما تعتبر الباكستان الفتحة العربي تحريراً للهند من وثنيها وجاهليتها وتقديس أبطال هذا التحرير ، ترى الهند فيه استيلاء واستعماراً ، وتقديس أبطالها الهندوكيين الذين تشتمل عليهم أساطيرها القديمة وخرافاتها الوثنية وتاريخها القديم ، ولذلك تطرد الهند الحروف العربية والكلمات

العربية من لغتها وتستبدل بها الحروف والألفاظ السنسكريتية ، في حين أن الباكستان تحتفظ بالحروف العربية وتستزيد من الألفاظ العربية وتراودها فكرة اتخاذ العربية لغة رسمية ، ويدعو إلى ذلك فريق من رجالها .

وهذا كله يجعلنا نعتقد اعتقاداً جازماً أن الهند والباكستان ستنتهيان إلى تكوين أمتين مختلفتين متميزتين ولو أنهما كانتا شعباً واحداً وقومية واحدة .

عوامل تكوين الأمة

إن وحدة المشاعر التي تجمع أبناء الأمة الواحدة والشعور بالتضامن والرغبة في الحياة المشتركة إنما تكون نتيجة لأسباب وعوامل أثرت في تكوينها وإيجاد هذه الوحدة والاشتراك والتضامن والتميز من غيرها ، وهي نفسها العوامل التي تكون سبباً في استمرار الوحدة والارتباط فيما بين أبناء الأمة الواحدة .

ومن المهم قبل أن نبسط هذه العوامل أن نشير إلى أمر هام جداً في هذا الموضوع : ذلك أن هذه العوامل يختلف تأثيرها قوة وضعفاً بحسب المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة في التطور البشري فقد كان تأثير الأرض وطبيعتها في بداية حياة البشر قوياً وعميقاً ولكن هذا التأثير يأخذ في الضعف كلما تحرر الانسان من سلطان الطبيعة وغدا هو الذي يغير الأرض ويقاوم تأثيرها ويحول دون عوارضها المختلفة ، وكذلك الدم والجنس ووحدة الأصل فان هذا العامل كان له تأثير قوي في تضامن الذين يربط بينهم الدم والجنس ، وكان هذا التضامن

شديداً يصل إلى حد العصبية في داخل القبيلة ثم داخل القوم الواحد الذين ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، ولكن هذه العصبية الدموية يخف تأثيرها كلما تقدمت الأمة ويحل محلها تدريجياً عوامل معنوية أخرى كالثقافة والمعتقدات والدين، والمبادئ الخلقية والتقاليد والعادات . إن هذه النظرية التطورية هي التي يهتمها أكثر الباحثين إذ ينظرون إلى العوامل المؤثرة في الأمة نظرة جامدة ثابتة ويناقشون هذه العوامل ويوازنون بينها من حيث القوة والضعف ويضربون لذلك أمثلة متنوعة من مراحل تاريخية متفاوتة فيضلون بذلك السبيل إلى الحقيقة .

إن الاتجاه في تطور العوامل المؤثرة في تكوين الأمة والربط بين أفرادها من حيث القوة والضعف آخذ بالانتقال من العوامل المادية كالأرض والجنس والعرق إلى العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات الفكرية والدينية كلما ارتقت الحياة البشرية وتقدمت وتطورت مع الزمن . ولنأخذ في استعراض هذه العوامل ومناقشتها :

١ - الأرض :

إن واقع الحياة أن لكل شعب من الشعوب أرضاً نشأ وترعرع

فيها واستثمرها وأقام عليها حياته وحضارته فأحبها وتأثر في طراز حياته بطبيعتها ، وكانت حياته الأولى تفاعلاً فيما بينه وبين الأرض ، ولذلك فإن شكل الأرض وطبيعتها وموقعها وحدودها ومواردها تؤثر في أسلوب المعيشة التي يحياها السكان وفي نوع فعاليتهم من زراعية أو صناعية أو تجارية ، وهي كذلك التي تغزل الشعب الذي يسكنها عن غيره من الشعوب بحدودها الفاصلة أو تخلطه بحدودها المفتوحة وبما يحيط بها من بحار أو يخرقها من أنهار ، إن ذلك كله يؤثر في تكوين طبيعة الشعب ومزاجه وصفاته وخصائصه في بداية تكوينه ، فيكون مجداً أو كسولاً وذكياً أو بليداً ومغامراً أو مخلصاً إلى الأرض ، سريع الانفعال أو هادئاً ، ميالاً إلى العمل اليدوي أو الفكري ، ضيق الخيال أو واسع ، منقبضاً منطوياً على نفسه أو منبسطاً مفتوح الأفق إلى غير ذلك من الطباع التي تكونها الحياة بأسلوبها وطريقتها وتتفاعل الانسان مع الطبيعة واختياره للمعيشة أسلوباً خاصاً وطريقاً محدداً يتناسب مع طبيعة الارض التي يسكنها واستمرار ذلك قروناً متطاولة .

لاشك أن الارض ذات تأثير في الطور الاول لحياة الشعوب في تكوين طباع متشابهة وصفات متقاربة في سكانها وبذلك تكون

الوعاء الجامع لهم الذي ينضج طباعهم وخلقهم ، ولكن تأثيرها ينقص بالتدريج كلما تمت الحياة الانسانية فوقها وعملت يد الانسان وعقله في تكييفها وفي رد عوارض الطبيعة وحماية نفسه منها ويتحرر بالتدريج من تأثير الارض . وقد كان تطور المواصلات على اختلاف أنواعها في داخل الشعوب وفيما بينها ونمو الحياة الفكرية والاديان العالمية سبباً في سلب الارض ما كان لها على الانسان من سلطان ونفوذ ولهذا لم تعد الارض إلا قاعدة ومسكناً للأمة وعنصرأ مادياً لا بد منه دون أن يكون السبب الجامع لانباء الامة والرابط الاساسي فيما بينهم ولا العامل الاقوى في حياتهم ، بل ان الارض انقلبت إلى عنصر معنوي يتجلى في حب الارض أو الوطن والحنين اليها والدفاع عنها على اعتبار انها مثوى ذلك الشعب الذي يعيش فيه ومثوى الآباء والاجداد والارض التي قام عليها تاريخ الامة وحضارتها والتي تشيد عليها في الحاضر حياتها وحضارتها .

ويحضرنا في هذه المناسبة الحديث القائل (من بدا جفا) أي من عاش في البادية ظهر الجفاء في طبعه ، وتقدير الله تعالى في أن يعيش بنو إسرائيل أربعين سنة أي جيلاً كاملاً في الصحراء يتيهون فيها . كما يجدر بنا أن نذكر قول الرسول ﷺ حين غادر مكة مهاجراً : (والله

إنك لأحب البلاد إليّ) ، واقتران حب الارض في القرآن بحب النفس « اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » واقترانها في موضع آخر بالدين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » وكل ذلك يدل على تأثير الارض وعلى أن فطرة الانسان التي فطره الله عليها حب الوطن والديار ولكن لهذا الحب حدوداً يجب أن لا يتجاوزها لان فوق هذا الحب حب الحق والعدل والدين والعقيدة، وقد عمأ هجر العربي أرضه إيثاراً للكرامة والعز وهاجر المسلم منها فراراً بدينه وفراراً من الظلم حين لا يستطيع الحفاظ على دينه ودفع الظلم عن نفسه .

٢ - الجنس والاصل :

إن الجماعات البشرية من شعوب وأمم ترجع في تاريخ تكوينها إلى استقرار عشيرة أو قبيلة في أرض معينة ثم امتزاج عدد من القبائل المتقاربة التي ترجع إلى أصل واحد وأرومة واحدة في شعب واحد ، وقد كان ذلك دوماً نقطة الانطلاق إلى تكون القوميات والامم ولهذا كان في كل شعب أو أمة عرق غالب وقد يكون هذا العرق مزيجاً من أعراق متعددة تلاقت وامتزجت وكونت عرقاً واحداً . ووحدة الحياة فوق أرض واحدة والاشتراك في الاقليم والمناخ

وفي طريقة التفاعل مع البيئة الطبيعية وفي طريقة المعيشة فيها والتصرف في آفاقها وبذل ضروب معينة من النشاط وسلوك طرق للحياة والارتزاق والعمل والكسب والتغذي والتنقل تكون في كل جنس من البشر صفات جسمية في لون البشرة وتقاطع الوجه وشكل الرأس وغير ذلك من الصفات الظاهرة والخفية كما تكون صفات معنوية مشتركة أو طبائع وأمزجة ، فقد عرف العربي بالذكاء والفراسة والانكليزي بالثبات والهدوء والفرنسي بالحاسة والانفعال والالمانى بالنظام والهندي بالخيال والزهد . ولكن اختلاط الشعوب واتصال الأمم بالهجرات الكثيرة الفردية والجماعية وتمازجها بسبب الاشتراك في حضارة واحدة أو دين واحد جعل صفاء الجنس ونقاوة الأصل أمراً مشكوكاً فيه ، ولا سيما أن التطور الحضاري في العادات وفي الصناعة واختلاط الشعوب بعضها ببعض غير الكثير من الصفات الجسمية والخلقية الخاصة بكل شعب من الشعوب .

قد تكون رابطة الجنس أي الاشتراك في الأصل والدم هي الرابطة القوية في المراحل الأولى من تكون الشعوب والأقوام حين كان الاعتقاد بوحدة الأصل الدافع الأقوى إلى التقارب والتضامن والتعاون والمحبة بل العصبية ، والاعتقاد باختلافه باعثاً على النفرة والجفوة ،

ولكن المشاهد في الواقع أن الأمم والشعوب لا تمكث طويلاً في هذه المرحلة بل تمر بها وتجتازها إلى غيرها ، فليست الرابطة في هذا العصر بين أبناء انكلترا أو ألمانيا أو أمريكا أو روسيا مثلاً هي كونهم ينتمون إلى أصل واحد وجنس واحد ، وإنما هي انتمائهم إلى ثقافة واحدة ولغة واحدة وتاريخ واحد ، وليست وحدة الجنس إلا عاملاً من جملة هذه العوامل يقويها ويعضدها .

إن الاعتماد على وحدة الجنس واعتباره الأساس الأول لقيام الأمة الواحدة لم تأخذ به إلا بعض الشعوب في فترات خاصة من تاريخها وقد ولد شعوراً بالاستعلاء واقترب بحب التغلب والسيطرة على الشعوب الأخرى وبروح الاعتداء والحروب وإثارة روح الحقد والبغضاء وأوجد بين الشعوب جوّاً من الكره والجفاء فكان بذلك منافياً للروح الإنسانية ومعوقاً عن التقاء الشعوب على صعيد إنساني مشترك .

إن التطور الداخلي في كل أمة كان يتجه دوماً نحو إحلال الرابطة المعنوية الروحية المستندة إلى الثقافة والمدنية محل الرابطة الدموية فالثقافة السكسونية والحضارة الانكليزية بعاداتها وتقاليدها وثقافتها ومذهبها البروتستنتي هي التي تؤلف الرابطة بين أبناء انكلترا . وكذلك العربي فقد كان انتماءه إلى النسب العربي هو الذي يربطه بأبناء العربية

وكما كان النسب أقرب كانت الرابطة أقوى وأشد ، ولكنه أصبح بعد الاسلام يرتبط بأبناء جلدته برابطة الإيمان برسالة الاسلام والثقافة التي نشأت بعد الاسلام وخاصة من مصادره وينابيعه وتاريخه وما تضمنه من عقائد ومبادئ خلقية ونظم تشريعية وما تولد عن الاسلام من بطولات وفتوحات وصلات وعادات . وكما كان القرب من هذه المبادئ وتلك الحضارة أشد والإيمان بها أقوى والحب لها أعمق والاستمسك بها أوثق كانت تلك الرابطة أقوى .

والخلاصة ان العرق أو الجنس إذا كان ذا تأثير في تكوين الشعوب في مرحلة قديمة من مراحل التاريخ وإذا كان رابطة بين أبناء الشعب الواحد والقومية الواحدة في طور من أطوار التاريخ حين كانت ضرورة حيوية للتماسك والتضامن والتعاون في مضمار الحياة فليس الأمر كذلك حين تتجاوز هذه الشعوب تلك المرحلة الأولى من تاريخها وتعدى طوراً معيناً من أدوار الحضارة ، وإن كان هذا لا يعني أن ينعدم تأثير العرق ولا أن ينعدم الشعور بالقربى لأنه أشبه بشعور الانتماء إلى أسرة واحدة الذي هو شعور فطري طبيعي ولكنه كشعور القرابة في الأسرة انتقل إلى الدرجة الثانية أو دون ذلك لأن شعوراً آخر تقدمه ورابطة أخرى استعلت ، تلك هي رابطة الانتماء إلى ثقافة

تلك الأمة وحضارتها وعاداتها وقيمها ومفاهيمها .

ولو نظرنا إلى العرب في الحاضر لوجدنا أن هذه الجماعة البشرية التي تسكن الوطن العربي من العراق إلى أقصى المغرب ومن بلاد الشام إلى اليمن وتكلم لغة واحدة يرجع أكثرها إلى أصول عربية تتفاوت في القدم وبعضها الآخر قد اندمج مع العرب بالاختلاط والتزاوج وباللغة والثقافة والدين حتى غدوا جميعاً يشعرون أنهم عرب ويصفون أنفسهم بالعربية .

٣ - اللغة :

يلاحظ أن انقسام البشرية إلى شعوب يقابله انقسامها إلى لغات وإن الغالب أن لكل شعب لغة مشتركة تميزه من غيره من الشعوب . فالعرب والإنكليز والفرنسيون والألمان والإسبان والأتراك والفرس وغيرهم من الشعوب كذلك لكل منهم لغته الخاصة التي تجمع بين أبنائه . ولهذه القاعدة شذوذ في أمثلة محدودة كاشتراك شعبين مختلفين في لغة واحدة كالإنكليز والأميركان ، وكالاسبان وبعض دول أميركا الجنوبية ، وكاختلاف اللغة في شعب واحد كسويسرا والهند والصين . إن المشاهد في الحاضر والماضي أن الاشتراك في اللغة - ونعني باللغة اللغة الطبيعية لغة الأب والأم التي ينشأ الإنسان عليها ويتحدث

بها - إن هذا الاشتراك يولد في المتحدثين بها شعوراً قوياً بالقربى والارتباط بالجماعة .

إن اللغة هي المدرسة التي يتربى فيها أبناء الشعب الواحد فيتلقون عن طريقها أفكارهم فتطبعهم بطابعها سواء في ذلك المثقفون بما يقرأون من آدابها في شعرها ونثرها أو عامة الناس بما يسمعون من عباراتها وقصصها وأنشيدوها . فالعربي ينطبع في عقله وتفكيره ومشاعره بما يسمعه منذ طفولته من آيات القرآن وبلغ كلام العرب من شعر البحري والمتنبى وشوقي وحافظ ومن آثار الأدباء من القدماء والمحدثين وما يقرأ من كتب وصحف ومجلات وما يسمع من محاضرات وإذاعات وما يصل إلى مسامعه في المجالس والندوات .

إن اللغة هي التي تكون الأفكار المشتركة والمشاعر المتشابهة فتوجد في الأمة عقلية واحدة أو متشابهة وتميزها عن غيرها من الأمم .

وإنك لتكاد تجد في كل لغة في جرس حروفها ونغمات كلامها وفي أسلوب نظمها للكلام وتركيبها للجمل صورة من صفات أصحابها وخصائصهم . وإنك لتجد في مفردات اللغة نظرة أصحابها إلى الوجود وطريقتهم في تصنيفها وتقسيمها وتكاد تبين من خلالها ملامح

شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وعقليتهم وبعض طبائعهم وعاداتهم . وتحكي كذلك تعابير اللغة ومجازاتها واستعاراتها بعض تلك الصفات والملامح . ولهذا كان اعتياد المتحدث بلغة من اللغات طريقاً للتأثر بطباع أهل تلك اللغة وعاداتهم وأخلاقهم وتفكيرهم واتخاذ الانسان لتلك اللغة لغة له هو انغماس وانصهار في حياة أهلها وتجنس بجنسيتهم وارتباط بحضارتهم . وإلى هذا المعنى أشار ابن تيمية في قوله :

(اعلم ان اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد في العقل والدين والخلق . وأيضاً فان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية) (١) .

وإلى هذا المعنى نفسه أشار رسول الله ﷺ ، فقد جاء قيس بن مطاطة إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ، فقال هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلاييه ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بما قاله فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي إلى

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٧

الصلاة جامعة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس إن الرب رب واحد والأب أب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

قال ابن تيمية بعد أن أورد الحديث : هذا الحديث ضعيف لكن معناه ليس ببعيد^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (من تكلم بالعربية فهو عربي ومن أدرك له أبوان في الاسلام فهو عربي) . ولهذا السبب نفسه تعني الأمم في نهضاتها بلغتها فتحييها وتهذبها وتحررها من الدخيل وتعز بها وتعتبر الحفاظ عليها كالحفاظ على أرضها وكيانها وتراثها ، وامتداد نفوذ الامم والشعوب يقترن كذلك بانتشار لغتها وثقافتها .

نقد وتحليل : اللغة الفاظ ام افطار

إن هذه الحجج التي قدمناها صحيحة مقبولة ، ولكننا لو تعمقنا في نظرتنا إلى اللغة وما تحدثه من تلك الآثار لوجدنا أنها إنما تؤدي تلك الوظيفة لما تحمل من ثقافة وأفكار ومفاهيم ومبادئ ومعتقدات

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٩

وعواطف لا مجرد كونها أصواتاً مجموعة أو حروفاً مكتوبة . فليست اللغة إلا أداة لحل الأفكار وقلباً لها ووسيلة لنقلها، فيكون الاثر الحقيقي إنما هو لمضمون اللغة. والحقيقة أن الذي يجمع أفراد الأمة حين تجمعهم اللغة وتوحد بينهم هو ما تحتويه تلك اللغة في آثارها الفكرية والادبية والفنية من أفكار ونظرات ومفاهيم ومبادئ وما يتسرب من ذلك إلى الناس في أحاديثهم في مجالسهم وندواتهم . والدليل على ذلك أن بعض الناس قد ينسون لغتهم الأصلية في أحوال خاصة كحالة بعض الجزائريين في عهد الاستعمار الفرنسي وهم مع ذلك لم ينسلخوا عن أمتهم بسبب احتفاظهم بعقائدها ومشاعرهما التي قد تكون انتقلت إليهم عن طريق اللغة الفرنسية من أبناء أمتهم من أهل الجزائر العرب المسلمين . ومن الأدلة على ذلك أيضاً أن بعض الاقليات القومية التي تعيش في أمة تختلف عنها عقيدة وثقافة لا تجعلها معرفتها بلغة تلك الأمة وإجادتها لها جزءاً من تلك الأمة كاليونانيين الذين نشأوا في مصر والأرمن الذين تربوا في سورية ولونسوا لغتهم الأصلية وسرعان ما يندمج في أمة من الأمم من يشترك معها في مبادئها وعقائدها ومثلها ولو كان جاهلاً للغتها في بادئ الأمر كالعرب الحضارة الذين هاجروا إلى الملايو واندنوسيا، وكالهنود والتركستانيين

والاندوسيين الذين استوطنوا الحجاز وكالاعاجم المسلمين الذين استوطنوا البلاد العربية .

إن وحدة اللغة متحقق في البلاد العربية ذلك أن خلود القرآن وبقائه محفوظاً وإقبال العرب عليه وحرصهم على تعلمه جعل اللغة العربية الفصحى هي الأصل الذي يرجعون اليه ولولا ذلك لنشأت لغات عديدة بسبب تعدد اللهجات في الاقطار العربية. ولو ان تلك اللهجات ثبتت وتطورت لانهت إلى لغات متباعدة كما حصل للغة اللاتينية في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. ولكن العرب كانوا يرجعون دوماً إلى اللغة الفصحى التي ثبتها القرآن الكريم ، ويعتبرون الانحراف عنها إلى اللهجات الاقليمية أو العامية انحرافاً في العقيدة والدين وابتعاداً عن القرآن . وأعان على ذلك ما في اللغة العربية من مرونة وقدرة على الوفاء بحاجات الحياة المختلفة من علمية وعملية ، وذلك ما جعل العرب يرتبطون فيما بينهم عن طريق اللغة العربية بما حملته هذه اللغة من ثقافة خلال قرون طويلة .

ولهذا السبب نفسه كانت محاولات الاستعمار والشعوية كليهما متجهة نحو إضعاف اللغة العربية وإحلال اللهجات العامية محلها ، وقد صرفوا جهداً كبيراً في دراسة اللهجات العامية الاقليمية . وكذلك

عمل الذين اتخذوا الاقليمية من أصحاب النزعة الفرعونية والقومية السورية وباؤا في مسعاهم هذا الذي أرادوا به محاربة العربية والاسلام معاً بالخبيثة والخذلان .

٤ - الثقافة :

يراد بالثقافة ذلك الجو الفكري والعاطفي الذي يعيش فيه أبناء الثقافة الواحدة والذي ينشأ من المعلومات النظرية التي يتلقاها المواطنون من دراستهم المدرسية وغير المدرسية والعملية التي يتلقونها من الحياة ، وما يتولد عن ذلك من عادات وتقاليد .

إن قوام الثقافة ليس في العلوم المحضة كالرياضيات والفيزياء لان هذه العلوم لا تختلف من أمة إلى أمة فهي مشاعة بين الناس ، ولا تختلف معادلات الكيمياء ولا نظريات الهندسة من شعب إلى آخر إلا من ناحية اتساع العلم والبحث العلمي وارتفاع المستوى العلمي . ولكن الجانب الذي يختلف من أمة إلى أمة وله في كل منها خصائص ومميزات وألوان واتجاهات هو الجانب المعنوي من الثقافة والذي يظهر في الادب والفلسفة والدين والتاريخ والفن إن هذا الجانب من الثقافة هو الذي يكون في كل أمة اتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها

ومثلها العليا ومبادئها وقيمتها ومقاييس الخير والشر عندها ومشاعرها وعواطفها ونفسياتها . وهو الذي يجعل منها أمة إنسانية مسالمة أو أنانية معتدية وعملية إيجابية نشيطة أو خيالية راكدة أو سلبية . وهو الذي يجعلها تتجة في الحياة اتجاهاً يغلب فيه جانب العمل والانتاج والكسب أو جانب الفن والخيال أو جانب الاخلاق والدين والخدمة الاجتماعية أو تتوازن فيه الجوانب كلها أو بعضها .

فالثقافة الفرنسية مثلاً بمصادرها اليونانية والمسيحية وما أضيف اليها منذ عهد النهضة حتى العصر الحاضر من مذاهب فلسفية وآثار أدبية وثورات سياسية وفكرية وصفحات تاريخية هي التي تكون عقلية الفرنسي ونفسيته وأفكاره وعواطفه . وهي تختلف عن الثقافة الالمانية والانكليزية وإن كانت تتفق معها في بعض الجوانب . فلكل من هذه الثقافات طابعها الخاص في الفكر والفلسفة والأدب والفن وحوادث التاريخ ومقاييسه وبالتالي تختلف في بعض المبادئ والمفاهيم والمثل والاتجاهات والعواطف . ولونظرنا إلى الثقافة العربية لوجدناها تختلف عن هذه الثقافات الثلاث اختلافاً كبيراً لما بينها وبينها من خلاف في أسس الثقافة ومذاهب الفكر وفلسفة الحياة ومبادئ الأخلاق وصفحات التاريخ ومعالم الحضارة .

وإن تقارب الثقافات واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة يقترن
دوماً بتقارب القوميات والأمم واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة
في الحياة ويسهل تعاونها في ميدان أو أكثر من ميادين الحياة .

إن البلاد الشيوعية على اختلاف قومياتها تشترك حالياً في ثقافتها
الأساسية ومن السهل أن تتعاون بسبب ذلك . ومثلها الشعوب
الاسلامية إذ كانت ثقافتها واحدة أو متشابهة فانها يمكن ان تتعاون
أوثق التعاون ولا سيما في المجال الشعبي والاجتماعي .

إن المهم في الثقافة التي تكون أبناء الأمة الواحدة وتوحدهم وتصل
ما بينهم بصلة قوية عميقة هو نوعية الثقافة والعناصر التي تتألف منها
لا المستوى الثقافي . فليس الناس سواء في درجة ثقافتهم وفي مستوى
هذه الثقافة وذلك في أي أمة أو شعب وليس ذلك بضائر وحدتهم
ولا منتقص تماسكهم الداخلي بشيء . أما اختلاف نوعية الثقافة فانه إذا
قوي واشتد وكان عاماً في طبقة كبيرة من الناس يحدث خللاً ويؤدي
إلى شيء من التفكك ويسبب على كل حال أزمة اجتماعية .

إن للعرب في شتى أقطارهم ثقافة مشتركة تتألف عناصرها الأساسية
من الأدب العربي في الجاهلية والاسلام ومن التراث الاسلامي من
القرآن الكريم والحديث الشريف وما نشأ عنهما من مفاهيم عقائدية

ونظرات ومبادئ خلقية سواء تجلى ذلك في ثقافة للخواص في علم الكلام والتصوف والفقه والفلسفة أو في ثقافة شعبية شائعة عامة . وتألف كذلك من التاريخ ولا سيما تاريخ الاسلام الذي يؤلف أضخم ما في التاريخ العربي وأوسع ما فيه من آفاق والذي هو الاطار الزماني والمكاني للحضارة الاسلامية التي أنشأها العرب متعاونين مع الشعوب التي استجابت لدعوتهم الاسلامية . وهذا التاريخ يتألف من حوادث وبطولات وفتوحات ومعالم حضارة ورجال أعلام في كل ميدان من ميادين الحياة . ويضاف أخيراً إلى هذه العناصر كلها عنصر جديد هو ما دخل الثقافة العربية في العصر الحاضر من ثقافة مستقاة من الأمم الغربية المعاصرة وحضارتها . إن الثقافة العربية في العصر الحاضر تتألف من مجموع هذه العناصر وهي بالجملة مشتركة بين مختلف الأقطار العربية على نسب متفاوتة . وهذا التفاوت يختلف باختلاف البيئات في كل بلد عربي أكثر من أن يختلف بحسب البلدان والأقطار .

وإن مما لا شك فيه أن عنصر الثقافة الأجنبية الذي دخل في الثقافة العربية إذا قوي تياره واتسع نطاقه وأخذ كما هو من غير مقياس ولا ضابط ولم يتمثل تمثلاً بمقياس الثقافة العربية يسبب خطراً على كيان الأمة العربية ويعهد السبيل لإذابتها في غيرها . ولست أعني هنا

بالثقافة الأجنبية العلوم المادية والعملية فإنها كما قلنا سابقاً لا تختلف من أمة إلى أخرى ، ولكني أعني المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية الفنية وسائر العناصر الحضارية التوجيهية في الثقافة. ولا شك كذلك أن الاطلاع على هذه الثقافة مفيد ونافع إذا قام به نفر من الخاصة الذين لهم من قوة ثقافتهم العربية الأصيلة وقوة شخصيتهم ما يحول بينهم وبين الدواب في تلك الثقافات الأجنبية .

ولو انتشر تيار الثقافات الشيوعية والوجودية وغيرها وطما سيله وطغى على ثقافتنا العربية وتراثنا الاسلامي وحملته اليها روافد من مختلف البلدان الأوربية والاميركية انشأ جيل عربي الوجه واللسان ، ولكنه أعجمي الفكر والنفس يشعر بالتبعية لغيره وباحتقار الذات .

إن الثقافة في كل أمة تتجدد وتنمو على الدوام فتضيف طريفها إلى تليدها ومبتدعاتها إلى تقاليدها ولكنها تسير في ذلك على طريقتهما وأسلوبها . وإذا كان الجديد مقتبساً تمثلته تمثلاً تاماً حتى يصبح قطعة مجانسة لثقافتها حتى لا يكون في حياتها انقطاع ولا فجوات .

نظرة تحليلية :

ونعود بعد ما قدمنا من بيان أثر الثقافة في تكوين الأمم والربط بين أفرادها وتوحيد عقليتها إلى القاء نظرة فاحصة على طبيعة الثقافة نفسها لمعرفة جوهرها والتفتيش عن سبب إحداثها مثل هذه الآثار التي تحدثنا عنها .

لقد قلنا في بدء كلامنا أن الجانب الذي تتميز به الأمم من الثقافة والذي يكون عقلية الأمة ويوحدها ويربط بذلك بين أبنائها ويوجد بينهم شعوراً بالانتماء إلى حضارة واحدة وروح واحدة هو ذلك الجانب المعنوي من الثقافة الذي يتجلى في تاريخها وأدبها ودينها وتقاليدها الفكرية والعملية ولو نظرنا في هذا الجانب من الثقافة لوجدنا أن العنصر الأساسي فيه والمشارك بين أجزائه ومجالاته المختلفة هو ما تتضمنه الثقافة من فلسفة في الحياة ومن نظرات إلى الوجود ومن مفاهيم واتجاهات ومن مبادئ وقيم . فالثقافة الفرنسية مثلاً مزيج معين من المذاهب الفكرية والدينية ومن القيم التي تقاس بها الحياة الماضية والحاضرة ومن المبادئ والمفاهيم الأخلاقية في الحياة . والثقافة الألمانية هي مزيج من نوع آخر لمذاهب فكرية ودينية واتجاهات

اجتماعية ومبادئ وقيم أخلاقية . وهكذا الثقافة الروسية والاميركية .
وعلى هذا فالعنصر الاساسي في الثقافة هو فلسفتها ومفاهيمها
ومعتقداتها وافكارها .

٥ - التاريخ :

إن وحدة التاريخ وحدة في (الزمان) كما أن وحدة الارض
وحدة في (المكان) فالتاريخ بحوادثه خلال العصور ولا سيما الكبيرة
ذات الاثر وعهوده المختلفة ومعاركه الحربية سواء أكانت نصراً أم
هزيمة ، بأفراحه وأتراحه ، بآماله وآلامه ، بحقائقه وأساطيره يكون
في كل شعب جزءاً كبيراً من تفكيره وشعوره بما يحدثه في النفوس
من آثار وفي العقول من تفكير وفي الحياة من اتجاهات . وهو مجموعة
من التجارب التي عركت الشعب وتفاعل معها فوحدته وجعلت له
في الحياة موقفاً واحداً .

إن حوادث التاريخ وتجاربه وأيامه تختلف من شعب إلى شعب
ولذلك تختلف الامم في تكوينها النفسي الناشئ عن التاريخ .
والتاريخ بالنسبة لكل أمة مجموعة ذكرياتها الحلوة والمريرة وصفحاتها
الجميلة والقيحة ، وهو كذلك ذاكرتها . ويتصل التاريخ الماضي

بالحاضر ثم ينقلب الحاضر ماضياً بل ان الحاضر هو الجزء الاخير من هذا الماضي وهو متأثر كل التأثر بالماضي .

ولما كان تاريخ الامة هو حياتها الماضية وتجاربها الخاصة فان الامم في نهضاتها تهتم بدراسة تاريخها لتتعرف إلى نفسها وتنعكس في تاريخها لتحقيق ذاتيتها ، ومن هنا كان الاعتزاز بالتاريخ اعتزازاً بالذات بالنسبة إلى الامم ، وكانت الدول المستعمرة تحاول أن تنسي البلاد المستعمرة تاريخها لتنسيها نفسها ولتنسلك من ذاتها وتسهل تبعيتها لها . وحين تتحرر الشعوب من الاستعمار تقبل على تاريخها فتدرسه لتستوحي من تجاربه وتعز بأجاده وتجنب أخطاءه ولتوقظ في نفوس أبنائها الشعور العميق بذاتيتها . وقد تصاب الأمم في إبان نهضتها القومية بالمقارنة في الاعتزاز بالتاريخ وتقريره الى حد العصبية حتى تقلب أخطاءه أمجاداً وسيئاته حسنات فتغلبها العصبية على الحق والهوى على المنطق فلكل أمة جاهليتها ولكل شعب عهود ضلال وفساد .

وتعصب الامم لجاهليتها وعهود ضلالها وأخطاء تاريخها ولرجالها الذين طغوا وظلموا وأفسدوا المجرد أن ذلك جزء من تاريخها تعصب غير محمود وانانية محفوة يشبه افتخار بعض الناس بماضيهم السيء في

القتل والنهب والفجور . وإنما يؤخذ من التاريخ محاسنه ومفاخره
وصفحاته البيض ، وأما أخطاؤه فتترك وضلاله فيصحح ويستفاد من
تجاربه السيئة ، فهو يعترف بالترك ويؤثر ترك قومى بل لما فيه من خير ومنفعة
وانسانية وقبم خلقية ومثل عليا .

لقد كان في تاريخ العرب الذي سبق الاسلام حسنات وسيئات
فكان فيه من مكارم الأخلاق ما أبقاه الاسلام وأكد بقاءه ، وكان
فيه من السيئات ما حاربه الاسلام وسعى إلى إزالته كالعصبية للقبيلة
والثأر والوآد في بعض القبائل فرسم بذلك للعرب ولغيرهم من الأمم
اتجاهات أخلاقية وإنسانية .

إن التاريخ المؤثر في حياة الأمم ليس هو التاريخ كله على الإطلاق
ولكنه الجزء الحي في النفوس من ذلك التاريخ لا الجزء الذي أصبح
نسياً منسياً ، فتاريخ العرب القديم الموغل في القدم ليس حياً في
نفوس جمهور العرب ولا يكادون يعرفون عنه شيئاً ولا يذكرون
أبطاله ، وإنما يبدأ التاريخ العربي الحي من عهد الجاهلية التي سبقت
الاسلام وكان الاسلام سبباً لمعرفتها لأنه جاء للثورة عليها وتغيير أكثر
ما فيها والإبقاء على ما كان فيها من الفضائل والمكارم . يعرف جمهور
الشعب العربي شيئاً قليلاً عن العصر الجاهلي ويسمع بكرم حاتم

وشجاعة عنتره ، ولكن أهم أجزاء التاريخ الحي في نفوس جماهير العرب
واقواها تأثراً ووضوحاً صورة في الذاكرة هو الجزء الإسلامي من
تاريخه . فليس من العرب أحد لا يضع في القمة العليا من هذا
التاريخ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس منهم من لا يرى
في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة و خالد وأمثالهم نماذج
إنسانية عليا ، كما يذكرون دهاء معاوية وعمرو وحزم زياد وظلم
الحجاج وبطشه وعدل عمر بن العزيز وزهده وترف العباسيين
وعلم الشافعي ومالك وبطولة صلاح الدين وإخلاص نور الدين ، وتلمع
في مخيلتهم وأذهانهم صور المعارك الكبرى من بدر إلى اليرموك
والقادسية إلى الحروب الصليبية إلى بلاط الشهداء في الأندلس ، وتم
في هذه المعارك الأخيرة وأبطالها من حرب الأمير عبيد القادر إلى
ثورة الاستقلال في الجزائر ، ومن معارك عمر المختار إلى الأمير
عبد الكريم الخطابي . إن العرب يشعرون أن في هذا التاريخ جزءاً من
وجودهم وأن انتصاراته انتصار للحق على الباطل سواء أكانت في
داخل البلاد العربية وبين العرب أنفسهم كبدر حيث انتصرت دعوة
التوحيد والحق ، أو بينهم وبين أعدائهم كالحروب الصليبية ، أو كانت في
الخارج كلقادسية وغيرها من معارك الفتوح . وقد امتزج تاريخ العرب

السياسي والحضاري في أبرز أقسامه وألمع صفحاته بالاسلام حتى غدا في شعور الجماهير شيئاً واحداً .

وعلى هذا الاساس الديني في تاريخ العرب تعاون العرب مع شعوب عديدة دخلت في الاسلام والتقت معها في حضارة واحدة وارتبطت معها بذكريات تاريخية عزيزة مقدسة وحاربت معها عدواً واحداً وكونت معها كتلة سياسية كالدولة العثمانية التي اجتمعت فيها شعوب عديدة واجهت مجتمعة الدول الاوربية التي بدأت زحفها وهجومها منذ عهد الحروب الصليبية وكانت هذه الدولة مبنية على مفهوم خاص هو اجتماع شعوب متعددة تحت راية الاسلام تربطها الرابطة الدينية ، وكان الحكم ينتقل من خلال التاريخ من شعب إلى آخر ومن أسرة إلى أخرى ولكنه حكم كانت تشترك فيه الشعوب والقوميات المختلفة في مختلف وظائف الحكم والادارة . ومن الخطأ الفادح تسمية هذا العهد عهد استعمار لانه عهد له مفهومه الخاص ، ولم يكن استعمار شعب تركي لشعب عربي اللهم إلا في الفترة الأخيرة التي حكم فيها حزب الاتحاد والترقي بدافع من القومية التركية بعد سقوط الخلافة ، فقد كان يشترك الاتراك والعرب والاكراد والجر كس والالبان في وظائف الدولة من رئاسة الوزارة حتى الوظائف الادارية الصغيرة ،

وما كان يكتب في السجلات المدنية وتذاكر النفوس إلا الدين .
وأما ما كان في ذلك العهد من ظلم أو فساد فذلك أمر لا علاقة له بهذا
الموضوع وظاهرة عامة لا تخص شعباً دون شعب . وكانت اللغة
التركية لغة الدولة لأن الرئاسة كانت فيهم وكانوا هم المتغلبين على الحكم
أكثر من غيرهم ، ولكن لم تكن نظرة تلك الدولة نظرة شعب
حاكم لشعب محكوم ، وإنما كانت النظرة : شعوب إسلامية متعددة
يحكمها خليفة تركي ، وهي متساوية في الحقوق والواجبات . إن هذه
الحال على ما كانت عليه من خير وشر تختلف اختلافاً كبيراً
عن حالة العرب تحت حكم الفرنسيين أو الإنكليز في عهد
الاستعمار الأخير .

إن مرحلة الاستعمار الأخيرة التي اقترنت بثورات التحرر من
الاستعمار وحدت كذلك بين البلاد العربية فولدت شعوراً
مشتركاً يتمم ويكمل ذلك الشعور العميق المشترك الذي ولده
فيها ذلك التاريخ السابق وعهود الإسلام وحضارته وفتوحاته
السامية والحربية .

ملاحظات هامة تتعلق بمفهوم التاريخ :

١ - وحدة التاريخ ليست مطلقة عامة فقد تمر بعض الحوادث

الجسام على بعض أجزاء الأمة الواحدة ، وقد تنقسم الأمة الواحدة في بعض عهود التاريخ إلى أقسام لكل منها تاريخه الخاص من الوجهة السياسية أو نظام الحكم أو العلاقات الخارجية أو الحروب أو الصلات الثقافية أو غير ذلك فليس تاريخ الحجاز والعراق والشام ومصر واحداً في تفاصيله في قيام نظام واحد للحكم وفي الانضمام للدولة العثمانية وفي الوقوع تحت الاستعمار وفي التحرر والاستقلال وفي غير ذلك من حوادث التاريخ ولكنها مشتركة في أهم صفحات تاريخها وفي خطوطه الكبرى ولذلك نجد إلى جانب التواريخ الكبرى الجامعة لتاريخ الاسلام وشعوبه ولتاريخ العرب تواريخ خاصة باقليم واحد وقطر واحد .

٢ - يقع في تاريخ الامم وتاريخ الامة الواحدة انفصال واتصال فقد يفصل جزء من شعب وينسلخ من تاريخ ويتصل بتاريخ آخر . فلو بقيت الاندلس ضمن حدود العروبة والاسلام لكانت متصلة بتاريخ المغرب لا بتاريخ اسبانيا ولكنها انفصلت عن هذا التاريخ الذي بقيت متصلة به مئات السنين وغدا تاريخها هو تاريخ اسبانيا .

إن الامم التي تتقارب في تواريخها أو تشترك في بعض عهود التاريخ في اتجاه واحد تتقارب في حياتها وفي حضارتها ، وكلما كان

ذلك الاشتراك أطول زمناً وأغنى بالحوادث وأكثر تداخلاً وأجمع في وجهة النظر وفي الاتجاه الحضاري كان التعاون والتقارب والتآلف أشد ، ولا سيما إذا شملت هذه الامم والشعوب وحدة ثقافية أو حضارية واحدة أو اطار حضاري واحد كالحضارة الاسلامية بالنسبة إلى الشعوب الاسلامية والثقافة الشيعية بالنسبة إلى الشعوب الشيعية مع الفوارق الكبيرة بين النوعين .

مناقشة وتحليل :

إذا وجدنا أن تاريخ الامة الواحدة يوحد أبنائها ، وتاريخ الشعب الواحد يوحد ذلك الشعب فانه يجدر بنا أن نبحث عن السبب في ذلك وعن نوع الارتباط بين التاريخ والمجتمع .

إذا كان التاريخ مجموعة حوادث كبيرة وصغيرة تحدث وتتابع على مشهد من جماعة بشرية معينة فهل الموحد لهم هو مرور الحوادث نفسها عليهم أم هو في الحقيقة تفاعلهم مع هذه الحوادث والاثـر الذي تتركه في عقولهم وفي نفوسهم ؟ وهل تترك الحوادث آثاراً متشابهة في الجماعة ومتى يكون ذلك ؟ ألا يختلف البشر في نظرهم إلى الحوادث التاريخية وتختلف مشاعرهم نحوها فرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً وفي تقويمهم لها واعتبارها خيراً لهم أو شراً عليهم ، ومتى

وكيف يتفقون في هذه النظرة وتقويمهم لها وتأثرهم بها ؟ هل ينظر
الهنود — المسلمون منهم والهنادك — إلى الفتح العربي الاسلامي للهند
نظرة واحدة وقيسونه بمقياس واحد ؟ ألا يرى المسلمون فيه
تحريراً لهم من الخرافة والوثنية وهداية لعقولهم وتوجيهاً لهم نحو
الخير والرقى ، ويرى فيه الهنادك تحطيماً لديانتهم القومية وحضارتهم
الخاصة ؟ ألا يرى المسلمون في محمد صلوات الله عليه الهادي والمحرر
الاعظم للانسانية ، وفي أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة و خالد أبطالاً
عظاماً وهداة للبشرية ومحررين لها من الظلم والعبودية والخرافة
ويتخذون من تاريخ الاسلام تاريخاً لهم ومن أبطاله نماذج إنسانية صالحة
للاقتداء جديرة بالتعظيم .

ان المهم في موضوع التاريخ ليس هو حوادثه نفسها وإنما هو
نظرة الناس إلى التاريخ والقيم التي بها يقومون رجاله وحوادثه .
وهذه النظرة وتلك القيم هي التي تجعله موضوع اعتزاز ومحبة أو نقمة
وكراهية ومحل فرح وغبطة أو حزن وألم . وان الموحد الحقيقي لآبناء
الامة أو المجتمع هو تلك المقاييس التي يقاس بها التاريخ وتلك النظرة
التي ينظر بها اليه ، لانها هي التي تولد فرحاً أو ألماً مشتركاً فتوحد
المشاعر وهي التي تجعل رجاله وحوادثه محل تقدير وتعظيم واعتزاز أو

موضع تحقير و كراهية و براءة . فالعنصر الحقيقي الذي يخفي وراء
عنصر التاريخ هو نظرة أبناء الأمة الى الحياة والقيم التي تؤمن بها والعقائد
التي تميز الخير من الشر والفضيلة من الرذيلة والمبارىء التي تقيس بها
الرجال والاعمال .

إن هذه القيم والمبادئ والنظريات والعقائد هي التي تسبب وحدة
التفاعل مع حوادث التاريخ فتجعل منها حينئذ عنصراً موحداً
لابناء الشعب .

إن العنصر الموحد بين أبناء المجتمع العربي هو اعتبارهم لمعركة بدر
انتصاراً للحق على الباطل واعتبارهم فتوح الشام والعراق عملاً تمدنيّاً
حضاريّاً محرراً من ظلم الرومان والفرس ونظرتهم إلى محمد بن عبد الله
على أنه أعظم العظماء وأن رسالته رسالة حق ونور وهداية ومدنية وإلى
المدنية التي انتشرت بانتشارها والحضارة التي أُقيمت على مبادئها على
أنها حضارة يعتزون بها وينتمون إليها ويقتبسون منها ويكملون عملها
ويتابعون رسالتها .

٦ - الدين والعقائد والأفكار :

لقد تبين لنا من مناقشة أثر اللغة والثقافة والتاريخ في تكوين

الأمم أن وراء هذه العناصر الثلاثة عاملاً أساسياً هاماً مشتركاً بينها
 وهو الذي يجعل اللغة والثقافة والتاريخ ذات تأثير في تكوين الأمم
 وعوامل مقربة وروابط جامعة لأبناء الأمة الواحدة ، وهذا العامل
 المشترك الشامل لهذه العناصر والداخل في مضمونها والمحتفي وراءها
 هو المفاهيم الأساسية والمعتقدات والافكار العامة والاتجاهات الفكرية
 الكبرى ، أي نظرة تلك الأمة العامة الى الحياة والعقائد المشتركة بين
 أبنائها أو أكثريتهم في كل عصر من عصورها أو طور من أطوارها
 سواء أكانت هذه المعتقدات والمفاهيم دينية أم غير دينية . والبحث
 في أثر الدين في تكوين الأمم وفي علاقته بالقومية إنما يدخل في نطاق
 هذا البحث الذي هو أشمل وأعم ، والباحث في تطور المجتمعات
 ونشوء الأمم في مختلف العصور لا بد له حين يستقرى الحوادث
 وينظر إلى ماضي الأمم وحاضرها من أن يطرح القضية على هذا
 الأساس الواسع . ذلك أن كل قومية من القوميات وكل أمة من
 الأمم لا بد من أن يشترك أبنائها في كل طور من أطوارها في مبادئ
 ومفاهيم ونظرات إلى الحياة ومعتقدات عامة مشتركة ولا بد أن
 يكون بينها حد أدنى على الأقل من المبادئ الاعتقادية المشتركة سواء
 أخذت هذه المعتقدات والمفاهيم المشتركة شكلاً دينياً واصطبغت

بصبغة الدين أم لم تكن كذلك . فالليونان القدماء كانت تجمع بينهم
ديانة وثنية والعرب جمع بينهم الاسلام حين ظهر في معتقداته ونظراته
إلى الحياة، والاتحاد السوفيتي في العصر الحاضر يجمع بين افراد كل قومية
من قومياته وبين جميع قومياته عقيدة واحدة هي الشيوعية باعتبارها
فلسفة وعقيدة . والاميريكيون تجمع بينهم مبادئ مشتركة تكون
فلسفتهم ونظرتهم ، وهي مزيج من الافكار المسيحية البروتستانتية
والمبادئ الديمقراطية .

والدين يدخل في نطاق العقائد التي يدين بها البشر بل هو من
أقوى العقائد تأثيراً في النفوس لاتصاله بأعمق العواطف الانسانية
ولما كان له في البشرية عامة ولدى مختلف الشعوب من أثر فكري
وخلقي عميق وامتداد في جذور البشرية على اختلاف أجناسها
وقومياتها .

ولا بد لنا لمعرفة أثر الاديان والمعتقدات عامة في تكوين الامم
من القاء نظرة تاريخية على الموضوع لمعرفة مختلف الاحوال بحسب
العصور وعند مختلف الشعوب والامم .

١ - كانت الظاهرة العامة في بداية نشأة الشعوب أن لكل شعب
دينه الخاص به فكانت الاديان قومية خاصة وكان الدين يؤلف جزءاً

اساسياً من حياة كل شعب . وتختلف الشعوب باختلاف اديانها كما تختلف الاديان باختلاف الشعوب التي تدين بها حتى كأن كل دين رمز لقومية معينة فيها مقترنان متلازمان متداخلان . فالزدية دين الفرس واليهودية دين بني اسرائيل والبرهمية دين الهنود والكونفوشية دين الصين حتى لكان لكل قوم إلهاً يتصورون أنه خاص بهم وأنه ينصرهم دون غيرهم . وهكذا تبدو الصلة القديمة بين كل قومية ودينها القديم صلة وثيقة عميقة وبذلك كان للدين أثره القوي في تفكير الشعب الذي يدين به وفي مفاهيمه وتصوراتهِ وفي سلوكه ومبادئه وأخلاقه . ولهذا الصلة العميقة القديمة يذهب غلاة القوميين في كل أمة في العصر الحديث الى بعث دياناتهم القديمة ووثنياتهم وجاهلياتهم وأساطيرهم ويعمدون الى إحيائها والإشادة بها وتجديد معالمها وتلقيحها الى الاجيال الجديدة . ومما لاشك فيه أن في هذا الاتجاه ضرباً من العصبية والهوى ومجافاة للحق والتفكير السديد .

٢ - ثم أتى على البشرية حين من الدهر توصلت فيه الشعوب وتأثر بعضها ببعض في الحضارة والثقافة والدين وانتقلت بعض الاديان من شعب إلى شعب كانتقال البوذية من حدود الهند الى الصين ثم الى المغول واليابان ، وانتشار النصرانية في شعوب عديدة، وظهور الاسلام وانتشاره في أمم كثيرة أيضاً .

إن هذه الأديان التي عمت أكثر من قومية وانتشرت في عدد من الشعوب أصبحت صعيداً مشتركاً بين تلك القوميات والشعوب تلتقي عليه في تفكيرها وفي مفاهيمها وفي سلوكها ومبادئها :

(أ) إن هذه الأديان العامة ظهرت في الأصل في شعب من الشعوب ثم انتقلت منه إلى غيره ، ولهذا فإن صلتها أوثق بالشعب الذي منه كانت البداية لأنه عاش في أجوائها قبل غيره من الشعوب وكان أطول ملازمة لها وأقدر على تفهمها وتمثلها . وهذه هي حال العرب مع الإسلام . ولكن هذه الحالة وإن كانت هي الأصل قد تشذ لأن بعض الديانات قد تنتقل إلى شعوب أخرى وتستقر فيها وتتأصل في حين أنها قد تضعف في بلدها الأصلي ومنشئها الأول كما حدث للبوذية التي كانت في الهند وعاشت بعد ذلك في غيرها .

(ب) إن الدين الذي ينتشر في شعوب كثيرة تدين به يصبح بالنسبة إلى كل قومية من قومياتها بعد طول الزمن وعلى مر الأيام جزءاً أساسياً منها وعنصراً من عناصر تكوينها يؤثر في تفكيرها وفي عاداتها ويكون إحدى الروابط التي تربط بينها داخلياً .

فالإسلام بالنسبة إلى الأفغان أو الأتراك مثلاً ، وهو الدين الذي عم في هاتين القوميتين حتى استغرق الشعب كله ، أصبح جزءاً من

كيانها وكوز جزءاً من تاريخها وأثر في تفكيرها وفي حياتها ولو أنه ظهر في الاصل في شعب آخر ، وكذلك المسيحية الكاثوليكية بالنسبة الى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا .

(ج) إن الدين الذي يعم قوميات عديدة يقيم فيما بينها رابطة روحية تتسع وتضيّق وتقوى وتضعف بحسب سعة ذلك الدين واستيعابه لنواحي الحياة كلها او لاقتصاره على بعضها وبحسب حاله من القوة والضعف . إنه يوجد فيما بينها أسساً عقلية ومفاهيم فكرية مشتركة فيقرب بينها في التفكير وفي مذاهب الحياة ومواقفها وفي الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الناشئة عن أحكام ذلك الدين وتصوراته ومفاهيمه ويوجد بنتيجة ذلك أهدافاً مشتركة في الحياة وشعوراً بالتآلف والتقارب والمودة ، تتقارب مقاييس الخير والشر والحب والبغض تقارباً قد يصل الى التماثل والوحدة في الفكرة والشعور وقد يمكنها من التعاون في مجالات عديدة وضمن إطارات متنوعة .

(د) إن أخذ شعوب مختلفة في أصولها القومية بدين واحد ليس معناه زوال جنسيتها وأصولها القومية واندماجها اندماجاً كاملاً في مجتمع واحد لا أثر فيه للغات المختلفة وعاداتها الاصلية وخصائصها ، فان هذا أمر لم يحدث حتى الآن في التاريخ فان انتشار الاسلام بين

العرب والترك والافغان والايرانيين والهنود والملاييين والاندونيسيين ليس معناه زوال صفة التركية عن التركي والهندية عن الهندي مع أن بعض هذه الشعوب اشتركت واجتمعت في دولة واحدة وفي نظام سياسي واحد حقبة من التاريخ كالعرب والفرس والافغان وكالعرب والأتراك في فترة أخرى ، وإنما معناه تعاون هذه الشعوب على اختلاف خصائصها القومية من لغة وعادات وطبائع وصفات في أهداف الحياة وغاياتها في المجال السياسي أو العلمي أو الاقتصادي أو في ذلك كله أي في المجال الحضاري . إنها يمكن أن تكون وحدة حضارية سواء أكانت في ظل حكم سياسي واحد أو متعدد .

(هـ) بل اننا نستطيع أن نقول إن الدين العالمي بل كل عقيدة عامة — مع وحدة العقائد والمبادئ الأساسية — يأخذ في كل شعب لوناً خاصاً ويتفاعل مع كل قومية تفاعلاً تظهر فيه خصائص تلك القومية وفعاليتها وطبائعها ، بل قد تظهر بعض نواحي عقليتها القديمة وعقائدها السالفة وعاداتها الماضية في الدين الجديد الذي تأخذ به . وقد يبلغ الامر أن تصبغ الدين الجديد بصبغتها الخاصة ، وتعكس عليه بعض ألوانها وصفاتها . فلا شك أن الاسلام واحد في عقائده وأحكامه ولكنه يأخذ عملياً ألواناً وأشكالاً مختلفة في اندونيسيا والهند

والملايو وتركيا ، وهذه الاشكال لاتضر ولا تؤثر في جوهر الدين ووحده إذ كانت تتعلق بالمظاهر والتفصيلات ، ولكنها تؤثر حين تمس المبادئ والاصول والاتجاهات الاساسية . وان نظرة فيما آل اليه الاسلام عند عوام الشعب في إيران والمقارنة بين أشكاله القريبة من الوثنية وعبادة البشر والقبور فيها وبين صفاء التوحيد الذي هو عليه في جزيرة العرب تكفي لبيان أثر خصائص الشعوب في الدين . وإن كثيراً من الانحرافات والتشويهات التي ظهرت في تاريخ الاسلام وما ظهر من فرق ابتعدت عن أصل الاسلام قليلاً أو كثيراً إنما نشأت في الغالب مما حملته بعض الشعوب معها حين دخلت الاسلام من عاداتها وعقائدها القديمة أو ما كان من رد فعل لها حين واجهت الدعوة الاسلامية . وإنا لنجد في البروتستانتية كثيراً من خصائص الشعب الالماني والشعوب الاوربية المجاورة له حتى أصبح هذا المذهب يتلاءم مع الشعوب الجرمنية والسكسونية .

٣ - إن بعض الامم ضعف فيها أثر الدين أو اقتصر على نواح محددة من حياتها ولكنها أحلت محله جزئياً أو كلياً عقائد أخرى فأصبحت هذه العقائد الجديدة هي العنصر الاساسي المشترك في تلك الامم . فالشعوب الاوربية كفرنسا وانكلترا والمانيا مثلاً لم يبق فيها

الدين العامل الاساسي في تكوينها وترابطها الاجتماعي ، ولكنه لم يفقد أثره مطلقاً بل لا يزال له أثر في الفكر والشعور ، ولكن تشاركه عقائد فكرية جديدة في هذا المجال . والشعوب التي اتخذت الشيوعية مذهباً استبدلت بالعقيدة الدينية عقيدة وضعية اجتماعية هي العقيدة الشيوعية بغفاهيمها ونظراتها . وعلى هذا تكون العقيدة في كل الاموال جامعة اساساً و رابطاً موحداً بين ابناء الامة الواحدة وإن كانت هذه العقيدة هي في روسيا مثلاً المسيحية الارثوذكسية في طور من الاطوار والشيوعية في طور آخر . ولكننا نستطيع أن نؤكد أن أكثر الشعوب الاوربية والاميركية إن لم نقل كلها لا تزال المسيحية التي هي دين شعوبها تؤثر تأثيراً عميقاً في حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية .

٤ - والسكن العقائد والادبانية ليست متساوية في تأثيرها في الشعوب وفي كونها عنصراً أساسياً في تكوينها وفي استمرار هذا التأثير وذلك بحسب كونها اورو عامة خاصة مستغرقة لجميع نواحي الحياة وفعاليتها أو مقتصرة على بعض نواحيها . فاذا كان الدين عاماً شاملاً لنواحي الحياة كان أثره في تكوين الامة أقوى شأنه في ذلك شأن العقائد الشاملة من هذه الناحية . واما إذا كان مقصوراً على شعائر العبادة وبعض المعتقدات الخاصة فان أثره يكون محدوداً .

ويختلف كذلك أثر الدين بحسب قدرته على الاستمرار والخلود
وصلاحيته للحياة وقدرته على تقديم الحلول لما يجد من الظروف وثبات
أسسه الفكرية واتجاهاته الاجتماعية أمام تطور الفكر والمجتمع .

ويختلف أثره من جهة أخرى بحسب قوة صلته وعمق تأثيره في
أمة من الأمم وطول اقترانه بتاريخها سواء أكان ناشئاً في الأصل فيها
أو في غيرها . ولذلك لا يمكن وضع قاعدة عامة في أثر الدين في
تكوين القوميات والأمم لأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال
التي ذكرناها .

ويمكننا بعد أن استعرضنا عوامل اللغة والثقافة والتاريخ والمعتقدات
أن نلاحظ أن هذه العوامل المعنوية كلها تؤدي إلى نتيجة هامة جداً
في تكوين الأمة وهي إيجاد جو من الانسجام الفكري والعاطفي بين
أفراد الأمة أي من التشابه في التفكير والسلوك والاتجاه في الحياة
وهذا الانسجام والتشابه المؤدي إلى التآلف والتعاون هو الأساس في
تكوين كل أمة من الأمم وفي ارتباط المنتمين إليها بعضهم ببعض وكلما
كان هذا الانسجام أكمل وأتم كانت الرابطة بين أبناء الأمة أوثق
وأقوى وثمة حد أدنى من الانسجام إذا فقد انحلت تلك الرابطة ولم
تعد الأمة أمة واحدة بل تغدو مجموع قبائل وعشائر تعيش بالتضامن

القبلي وبالتوازن بين القوى المتقابلة . إن هذا الحد الأدنى من الانسجام لا يتحقق إلا إذا كان للأمة عقيدة أو فلسفة في الحياة مشتركة توحيد أو تقارب بين نظرات أبنائها ومواقفهم في الحياة . إن اتفاق النظرة الى الحياة أو الاشتراك في المفاهيم والمعتقدات — مهما تكن تلك المعتقدات وبصرف النظر عن صحتها أو خطئها -- هو العامل الأقوى والعنصر الأهم في تكوين الأمم وهو الذي يجعل من الأمة وحدة اجتماعية حية متألّفة لها كياناتها وخصائصها . ولا شك أن الاشتراك في دين واحد عامل هام من عوامل هذا الانسجام ولا سيما إذا كان هذا الدين عميق الجذور في الأمة التي تدين به شاملاً لآفاق حياتها مؤثراً في تفكيرها مقترناً بتاريخها . وأما إذا كان الدين مقصوراً على جانب ضئيل من حياتها كأن يكون مقصوراً على نوع من شعائر العبادات محدوداً في مفاهيمه ومضمون معتقداته كان تأثيره في كياناتها أضعف ولذلك لا يمكن وضع قاعدة عامة في أثر الدين في تكوين القوميات والأمم لأن ذلك يختلف باختلاف قوة أثره وسعة أفقه واستمرار بقائه وطول ملازمته للأمة التي تدين به .

ونختتم كلمتنا في أثر الدين بقولنا : إن للدين أثراً في تكوين الأمم ولكن هذا الأثر يختلف باختلاف الأديان والأمم وباختلاف العصور

والاحوال فيكون قويا حتى يكون العامل الالم والعنصر الاقوى في
أمة من الامم ويكون بالنسبة الى غيرها عاملاً ثانوياً من عوامل
تكوينها وهو يشارك في ذلك سائر العقائد التي تسود الامم وتدين
بها الشعوب .

ولو نظرنا في ضوء هذا البحث الى أثر الاسلام في العرب والصلة
بينه وبينهم لوجدنا أن الاسلام كان له الأثر الأكبر في جميع نواحي
حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية والنفسية ولا يزال أثره كذلك
قويا في حاضرهم فهو الذي أنشأ ما بينهم من انسجام في الفكر والروح
والاتجاه والسلوك ذلك الانسجام الذي مكّنهم من التعاون على إيجاد حضارة
ذات أسس ومعالم فهو بالنسبة إليهم ليس ديناً بالمعنى الضيق فحسب بل
هو فكرة وعقيدة ونظام اجتماعي وثقافة وتاريخ وحضارة وقيم ومثل
عليا ونظرة شاملة الى الوجود .

الاسلام والامة العربية :

نستطيع في ضوء هذه المعلومات والمسلمات التي قدمناها أن نعرف
العلاقة بين (الاسلام) و (الامة العربية) وإلى أي حد يمكن أن
نعتبره عنصراً أساسياً وعاملاً مكوناً لها ورابطاً بين أبنائها في

الماضي وفي الحاضر . ولنستبين هذه العلاقة نقدم الافكار والملاحظات
التالية :

(أ) إن صلة الاسلام بالعرب تاريخياً صلة لا تنفصم . ذلك أن
الاسلام هو الذي جمع العرب لأول مرة في تاريخهم في اطار اجتماعي
وسياسي واحد . ولم يسبق لهم أن اجتمعوا في ظل فكرة وعقيدة
واحدة ونظام واحد قبل ذلك ولا تحت حكم واحد . وهو كذلك
قد حملهم رسالة إنسانية رائعة مفتوحة الآفاق إلى العالم أجمع وبعثهم على
تأسيس حضارة لم يسبق لهم ولا لغيرهم تأسيس مثلها .

(ب) لقد أصبح الاسلام بالنسبة الى العرب منبع حضارتهم
وقوام تفكيرهم ومصدر ثقافتهم الاساسية وموجه حضارتهم والمخطط
لها ، وغدا تاريخه هو تاريخهم فكان بين أمة العرب والاسلام ديناً
ورسالة ونظاماً اقتران مستمر على الزمن وتلازم لا يقبل الانفكاك
وأصبح كل انتقاص او طعن في الاسلام او عداوة له هجوماً عليهم
وتحطيماً لكيانهم وإشهار عداوة عليهم كذلك .

(ج) وعلى أساس الاسلام بني كيان المجتمع العربي في الاسرة
وسائر ميادين الحياة الاجتماعية وفي التفكير ومجالات العاطفة ،

كما بنيت على أساسه كذلك صلاتهم الخارجية فانعقدت بينهم وبين الشعوب التي دانت بالاسلام صلات فكرية ثقافية وعاطفية لا تنفصم ، وهي صلات تخدم الانسانية والتقارب الانساني بوجه عام .

(د) لا يشابه الاسلام في موقعه هذا من حياة العرب أي دين آخر أو عقيدة أخرى قديمة أو حديثة فلا سبيل الى المقارنة في ذلك بينه وبين غيره من الاديان والعقائد لأن ذلك هو واقع العرب وحقيقتهم في ماضيهم وحاضرهم ، ومن الحيانة للحقيقة والتاريخ وللغرب والاقتتات عليهم تشويه هذه الحقيقة المتعلقة بكيانهم لاعتبارات عارضة أو أهواء خاصة أو تقليداً للأمم أخرى تختلف أوضاعها عن أوضاع الامة العربية .

(هـ) إن العرب في العصر الحاضر يدين ٩٥٪ منهم على الأقل بالاسلام فلا يجوز تجريد هذه الجماهير من انتمائهم الى الاسلام المتصل بحياتهم كل الإتصال فإن ذلك اعتداء صريح على حق الامة العربية في الحفاظ على مقوماتها الاساسية وكيانها وذلك حق طبيعي يقره الواقع وجميع الأعراف الحقوقية . والاسلام ليس عنصراً تاريخياً فحسب بالنسبة الى العرب بل هو عنصر متصل اتصالاً مستمراً عميقاً

في حياتهم الحاضرة ونظرتهم الى الحياة ومفاهيم عقائدهم ومثلهم العليا
وأخلاقهم وعاداتهم بل هو المنبع الاساسي الذي أمد ثوراتهم المستمرة
امام الغزو الاستعماري والحاجز المنيع دون ذوبانهم في بوتقة الشرق
او الغرب في مذاهب هؤلاء وأولئك ، بل هو الرصيد الذي يدخرونه
لانتقاذ الانسانية والحضارة مما تتردى اليه .

يقول الكاتب العربي المسيحي نبيه فارس وزميله محمد توفيق حسين
في كتابهما (هذا العالم العربي) ص ٤٧ :

(وما يشاهد اليوم في الاقطار العربية من تشابه في نظام الأسرة
وفي عقلية الناس وفي سلوكهم أفراداً وجماعات يرجع الى حد بعيد
الى انضوائهم تحت لواء الاسلام وعيشهم في ظل ما انتج من نظم
اجتماعية وسياسية وعقلية وهو يمتد الى أبعد من ذلك . فهو
يوحد العرب المسلمين عاطفياً ويربطهم بوحدة المثل العليا . لقد كان
الاسلام وما زال في قلوب الكثيرين من العرب اليوم يقوم مقام القومية
وكانت عاطفة الاخوة الاسلامية تقوم مقام عاطفة القومية .

والحق أن جماهير الشعب العربي في اي قطر عربي تنظر الى شعوب
الاقطار العربية الاخرى كاخوان لهم يوحدهم الاسلام اولاً والعروبة

ثانياً ، وان عاطفة الاخوة الدينية هذه هي التي ألقت بين الأقليات القومية المسلمة كالأكراد والبربر والزنج وبين العرب . وبهذا نستطيع أن نفسر محاولات الانكليز لمنع تسرب الاسلام الى القبائل الوثنية الساكنة في السودان ودأب الفرنسيين على إضعاف الدين الاسلامي واللغة العربية في المغرب الأقصى وبين قبائل البربر خاصة لتوهين الوحدة الروحية التي تربطهم بالعرب).

وقال الدكتور جميل صليبا في بحثه عن : (الطابع الانساني للقومية العربية) الذي استعرض فيه العوامل التي كونت القومية العربية :

(وأما الدين الاسلامي الذي نظم العرب ووحّد شملهم وألّف بين قلوبهم ومكّن لهم في الارض فغرضه ترقية الانسان مادياً ومعنوياً وقد أجمع المؤرخون على اعتبار الرسالة الاسلامية رسالة إنسانية لما فيها من الخفض على تحرير النفس والعقل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالمسؤولية الفردية والايامان بالمساواة والشورى والتضامن الى أن يقول : ومتى أدرك الانسان ما في الدين الاسلامي من قيم إنسانية رفيعة أحب الامة التي حملت رسالته ونشرتها في شعوب الارض قاطبة بالتسامح والعدل والرحمة والحب والايامان . وعندي أن

القيم الانسانية التي انطوى عليها الدين الاسلامي هي القومية العربية
بعينها فمن لم يؤمن بهذه القيم لم يكن عربياً حقيقياً .

وقال الدكتور منيف الرزاز في كتابه (معالم الحياة العربية الجديدة)
الطبعة الثالثة ص ٢٦٩ في بحثه عن (أركان القومية العربية) بعد أن
ذكر وحدة الارض واللغة والتاريخ :

(أما الركن الرابع من أركان القومية العربية فهو الدين
الاسلامي إلا أن الذي لاشك فيه أن الاسلام قد صبغ حياتنا
العقلية التي رافقتنا أكثر من ثلاثة عشر قرناً وصبغ تفكيرنا وتقاليدنا
وعاداتنا وأساطيرنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية المعيشية . وإن المسيحيين
العرب الذين عاشوا في هذه البلاد قد تأثروا بهذه الى حد كبير على
رغم اختلاف الدين . فالاسلام في هذه البلاد لم يكن مجرد دين فحسب
بل كان تاريخاً وحضارة وحياة عقلية . فالمعول هنا ليس على نسبة
المسلمين الى المسيحيين من ناحية العدد وإنما المعول على ما أحدث
الاسلام من أثر في حياة سكان هذا الوطن أدى الى توحيدهم جميعاً
مسلمين ومسيحيين في إطار فكري ومعيشي واحد .

(و) وإن وجود أقلية عربية تدين بالمسيحية لا تلغ هذه

الوحدة ولا تغير من الحقيقة التاريخية التي تجعل من الاسلام عاملاً أساسياً في تكوين الامة العربية الفكري والاجتماعي والنفسي، وفي الربط بين أبنائها في الحاضر والماضي وذلك لسببين: أولهما أن من حسن الحظ أن بين الاسلام والنصرانية صعيداً مشتركاً فكلاهما في أصله دين سماوي يبنى على الايمان بالله ومسؤولية الانسان أمامه وبحياة أخرى وراء هذه الحياة يكون فيها الجزاء والحساب والنبوات والوحي وبالقيم الروحية والمبادئ الخلقية التي جاءت بها الأديان السماوية وكلاهما يعظم المسيح عليه السلام ويقدسه على اختلاف في طريقة هذا التعظيم وكلاهما يعظم أمه تعظيماً كبيراً وكلا الدينين عاشا في اطار واحد من التسامح والأمن والسلام . والسبب الثاني هو أن المسيحيين من الوجهة القومية عاشوا في أجواء الفكر الاسلامي والثقافة والحضارة الاسلامية وتأثروا بذلك تأثراً كبيراً .

ويمكن أن نضيف الى هذين السببين سبباً ثالثاً مهماً وهو أن الوعي العربي العام جعل المسيحيين العرب يشعرون كما يشعر المسلمون أن الاسلام ترانيمهم القومي ومنبع ثقافتهم القومية وحضارة أممتهم وانطلقت ألسنة الكثيرين من المفكرين والكتاب المسيحيين في التعبير عن هذا المعنى والاتجاه في هذا المنحى .

(ز) لا منافاة ولا تعارض بين حقيقتين واقعتين إحداهما وجود مجتمع عربي يجمع بينه اللغة والجنس ويتصل بالاسلام صلة وثيقة عميقة وتدين غالبية به وفيه أقلية تدين بغير الاسلام ولكنها ترى في الثقافة العربية والاسلام عنصراً أساسياً - وفي التاريخ العربي - والاسلام عصبه المحرك - وفي الحضارة العربية - والاسلام روحها وأساس مفاهيمها - ثقافة لها وتاريخاً وحضارة من الوجهة القومية . والحقيقة الثانية وجود دائرة أوسع من الدائرة العربية وتشتمل على شعوب كثيرة تدين بالاسلام وترتبط به عقيدة وروحاً وحضارة وتتصل بالمجتمع العربي اتصالاً وثيقاً بسبب الاسلام وترتبط بغالبية برابطة العقيدة وأخوة الدين كما ترتبط بالمجتمع العربي كله برابطة الثقافة العربية والحضارة الاسلامية . وأما الاطار السياسي الذي يعيش فيه الشعب العربي والشعوب الاسلامية الأخرى فموضوع آخر ، فقد يعيش كل واحد من هذه الشعوب في كيان سياسي مستقل وقد تعيش شعوب متعددة تدين بالاسلام في كيان سياسي واحد في بعض العصور .

فالرابطة التي تربط بين العرب المسلمين رابطة قومية ودينية في آن واحد والرابطة التي تربط بين العرب من مسلمين ومسيحيين رابطة

قومية ويدخل الاسلام في كل من الحالتين وفي كلا الرابطتين من وجهين مختلفين . والرابطة بين العرب في أكثرتهم المسامة وأبناء الشعوب الاسلامية رابطة دينية وحضارية .

ولا مجال لوضع هاتين الرابطتين الدينية والقومية في موقف التعارض لأن علاقتهما الطبيعية التعاون والتآزر دون أن يكون في ذلك اضرار أو إيذاء لمن ينفردون بالرابطة القومية دون الدينية من أبناء العرب .

٧ - وحدة المصالح الاقتصادية :

يزعم بعضهم أن تشابه المصالح الاقتصادية بين أفراد المجتمع هو الذي يجعل منه وحدة قومية ويكون منه امة واحدة ولذلك كانت رابطة المصلحة الاقتصادية المشتركة في زعمهم إحدى الروابط الأساسية التي تربط بين أفراد الأمة .

لاشك أن المعيشة المشتركة في أرض واحدة مدة طويلة من الزمن تؤدي الى تشابك المنافع والتشارك في المصالح والتعاون في الحياة الاقتصادية ولكن الحياة المشتركة هي التي أدت الى هذه النتيجة وهي سابقة لها ومتقدمة عليها . ومن الأمور المعروفة المشاهدة أن الناس

لايستبدلون بقومياتهم قومية أخرى ولا ينسحبون من أمتهم لينتموا الى أمة أخرى لمصلحة اقتصادية . والأمم التي جاهدت للتحرر من الاستعمار ما كانت لترضى البقاء في حالة الاستعمار ولا الاندماج ولو كان على أساس المساواة التامة مع أمة أخرى لمجرد وجود مصلحة اقتصادية لها في ذلك .

ولو أن الأمور كانت تجري وفق المصالح والمنافع بالنسبة الى كل بقعة من الأرض لتغير المصور الجغرافي للعالم ولالتحقت كثير من المناطق بغير البلاد التي هي اليوم جزء منها والتي لا ترضى عن بقائها معها بديلا ذلك أن الصلة بين أجزاء كل بلد وأفراد كل أمة هي بالدرجة الأولى رغبة نفسية وصلة معنوية ناشئة عن التشابه والتقارب أو التماثل والاشتراك في العقلية والعادات والثقافة واللغة والمعتقدات والمفاهيم .

ولكن مما لاشك فيه أن مما يكمل وحدة كل أمة من الأمم ومما يقوي روابطها التعاون الاقتصادي والاشتراك في المصالح ولذلك تسعى الدول الحديثة لتنسيق المصالح الاقتصادية وتأمين الخدمات والمنافع لرعاياها . ذلك أن تنافر المصالح الاقتصادية بين الأفراد أو

المناطق أو الطبقات في الأمة الواحدة باحتكارها لجهة دون جهة وحرمان غيرها يؤدي الى تصدع الوحدة وإضعافها بما يحدثه في نفوس فريق من أبناء الأمة من النقرة والقلق والنفور

٨ - الوحدة السياسية أو الدولة :

إن الوحدة السياسية وقيام دولة لها أرضها وشعبها وحكومتها هو النتيجة الطبيعية للتآلف والتضامن في الأمة التي وحدتها الأهداف والغايات والآراء والمعتقدات والثقافة واللغة والتاريخ والآمال وليست - كما يمكن أن يظن - السبب في تكوين الأمة .

فالوحدة الحاصلة في مجتمع قومي أو في أمة من الأمم تكون موجودة وقائمة مهما يكن وضعها السياسي قبل نشوء الدولة وبعدها وفي حال إلحاقها بدولة أخرى أو تحريرها واستقلالها ذلك أنها كما قلنا سابقاً ناشئة عن عوامل كثيرة أهمها الثقافة والمعتقدات واللغة والتاريخ والاشتراك في أسس الحياة الأصلية المادية والمعنوية . ولكن لا ينكر أثر قيام الدولة في كل أمة فهي التي تصون وحدتها وتقويها وتدافع عن كيانها المادي والمعنوي وتحمي تراثها وثقافتها وعقيدتها وتفسح لها المجال لتزكية مواهبها وتنمية خصائصها وتفتق عبقرياتها فليست

وحدة العرب وقوة تضامنهم وترباطهم بعد ظهور الاسلام وقيام الدولة الجامعة لهم مثلها قبل نشوئها فهي التي صانت لغتهم وحمت عقيدتهم ووسعت آفاق ثقافتهم ومكنت لهم في الأرض .

إن الكيان السياسي - وإن لم يكن عاملاً في إيجاد الأمة وعنصراً من عناصر تكوينها الأساسي - متمم لوجودها وضروري لبقائها واستمرارها ولحمايتها والدفاع عنها وتمكينها من تقديم ما عندها من خير لنفسها وللإنسانية .



الفهرس

الصفحة	
٣	تمهيد
٩	المقدمة
١٢	العالم ينقسم الى شعوب
١٥	المجتمع العربي
٢١	المجتمع العربي والعالم الاسلامي
٢٧	العوالم الأخرى
٣٤	القبيلة . القومية . الانسانية
٤٢	الأمة
٤٧	عوامل تكوين الأمة
٤٨	١ - الأرض
٥١	٢ - الجنس والأصل
٥٥	٣ - اللغة

الصفحة

٤ — الثقافة	٦١
٥ — التاريخ	٦٧
٦ — الدين والمعتقدات والأفكار الاسلام والأمة العربية	٧٦
٧ — وحدة المصالح الاقتصادية	٩٥
٨ — الوحدة السياسية أو الدولة	٩٧

آثار المؤلف

الامة العربية في معركة تحقيق الذات	٧٦
فقه اللغة وخصائص العربية	٣٥
نحو انسانية سعيدة	٦٣
من منهل الأدب الخالد	٧٥
الدولة عند ابن تيمية	٨٥
فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ	١٥
	٥٥

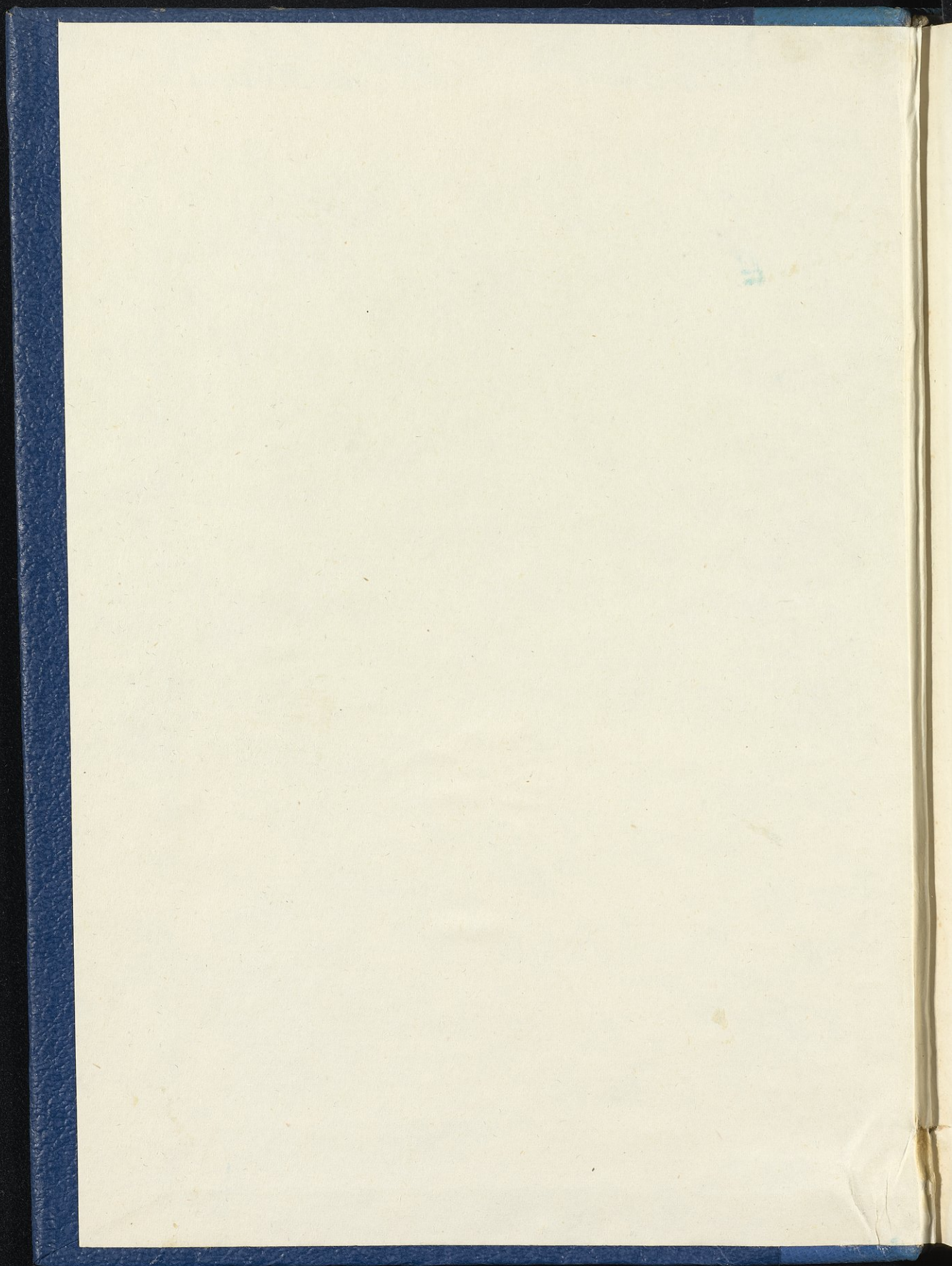
Cornell University Library
DS 63.7.M94 1960

Ummah wa-al-awamil al-mukawwinah laha



3 1924 028 537 961

olin



DS

63

.7

M94

1960